



جاستون ڤييت

القاهرة مدينة الفن والتجارة

ترجمة

دكتور مصطفى العبادى

القاهرة

مدينة الفن والتجارة

تأليف جاستون ڤييت

ترجمة دكتور مصطفى العبادى

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Cairo City of Art and Commerce

by Gaston Wiet

University of Oklahoma Press, 1964

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

web site: WWW.Dar-Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

المسهمون فى هذا الكتاب

جاستون ڤييت

(المؤلف ، مستشرق فرنسى، ولد عام ١٨٨٧ . وكان مديرا لدار الآثار . ١٨٨٧ . وكان مديرا لدار الآثار العربية بالقاهرة (١٩٢٤- ١٩٤٤)، وانتخب عضوا بالمجمع اللغوى بالقاهرة (١٩٣٠) . وهو الآن أستاذ شرف للغة العربية فى الكوليج دى فرانس. له مؤلفات كثيرة فى التاريخ الإسلامى ، وعدة كتب فى وصف محتويات متحف الفنون الإسلامية . حقق الجزء الأول من كتاب «الخطط» للمقريزى ، وترجم كتاب «البلدان» لليعقوبى، و«مختصر الادريسى»، وشارك فى دائرة المعارف الاسلامية، كما أنه صنف بمعاونة لويس هو تكور كتابا ضخما عن جوامع القاهرة. ومن أحداث مؤلفاته كتاب «عظمة الإسلام» .

الدكتور مصطفى العبادى

(المترجم) نال درجة الليسانس من قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عام ١٩٥١، ونال درجة الدكتوراة فى التاريخ اليونانى الرومانى من جامعة كامبردج عام ١٩٦٠ . ودرّس بعد ذلك فى جامعة الاسكندرية ، ومنذ ١٩٦٦- ١٩٦٧ وهو يشغل منصب أستاذ مساعد فى جامعة بيروت العربية . له كتاب : «مصر من الاسكندرية إلى الفتح العربى» .

وقد رأى الدكتور العبادى عند ترجمة هذا الكتاب أن يثبت فيه هوامش بمصادر النصوص العربية، بعد أن ردها إلى أصولها ، نظرا لأن الولف الأصلى لم يتضمن مثل هذه الهوامش باعتباره من كتب الثقافة العامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

«بغبطة أدخل هذه المدينة الفريدة»

أوجين فرومنتان

إن هدفى هو دراسة تطور العواصم الإسلامية لمصر، وبصفة خاصة مدينة القاهرة. وسوف ابدأ بالفتح العربى الذى أدى إلى اختلاط واسع الانتشار بين الشعوب فى قارتين، وانتهى باكتشاف الطريق حول رأس الرجاء الصالح، فهو حدث لم يسبق له مثيل فى تاريخ التجارة العالمية، أدى بطريقة حاسمة إلى إضعاف دور مصر الدولى الحيوى.

لقد كتب هذا الكتاب لجمهور ذى ميول مختلفة ؛ وإن التصدى لوضع مؤلف عن القاهرة ، مهما كانت الظروف ، لهو عمل لايخلو من مخاطرة ؛ إذ لعلها المدينة الإسلامية التى حيرت المؤرخين أكثر من غيرها. فهناك كتب كثيرة فى جميع اللغات تتناول تاريخ المدينة وآثارها وسكانها . ولهذا ، فإن من المشكوك فيه أن هذا الكتاب، الذى يأتى بعد كثير غيره، يمكن أن يوصف بالأصالة . ولعل أصالة هذا العمل تقع فى التعبير بكلمات جديدة عن الإعجاب بحضارة لا أدعى لنفسى فضل اكتشاف خصائصها. فسوف أفيد من أعمال من سبقونى، مضيفا إليها جهدى الشخصى ، وأنه لمن المستحيل ألا أكرر ما سبق أن قالوه. على أن الهدف الذى أسعى إليه أمر ليس من السهل تحقيقه . فهناك كلام كثير اليوم عن الدراسة الشاملة للشعوب؛ وفى هذا المجال، نجد القائمين بالدراسات الشرقية متخلفين عن الركب ، حتى أنهم يجدون صعوبة فى دراسة الأوصاف الظاهرة لشخصيات كبرى . وإنى لآمل أن أقدم عرضا دقيقا للعادات والتقاليد ، وأن أجعل الماضى يعيش من جديد ؛ ولكن لازالت هناك وثائق مفقودة أو لم يتم نشرها ودراستها .

ليس للقاهرة من ذيوع الشهرة ما لمراكز الحضارة فى مصر القديمة، والجنوح إلى التعالى بالإضافة إلى الاكتشافات الأثرية مثل مقبرة توت عنخ آمون لم تساعد على تغيير هذه النظرة. ومع ذلك ، فإن هذه المدينة تحتل مركزا مرموقا فى تاريخ الفن، وذلك بفضل الأعمال العمرانية التى ازدهرت فى ربوعها ازدهارا باهرا . ولايزال بالمدينة أحياء تتميز بطابعها الذى

يسمح للخيال بأن يعود بنا إلى العصور الوسطى؛ فالأبنية تحرك ذكريات كثيرة من الماضى. فهى تردّ إلى مخيلاتنا أحداث السنين الخوالى. أنها تقف بمثابة شهود تمنعنا من أن نقلل من شأن تاريخ القاهرة ، فنرتكب بذلك اثم تزييفه . ففيها ، كما فى غيرها ، تردد الأحجار الحانا من المجد السالف . ونحن أنفسنا يجب أن ننظر خلال المئات من الدروب الضيقة لنرى تلك الأماكن المقدسة المتواضعة التى تخيم عليها مسحة من الكآبة الحلوة. فعلى طول الطريق، من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية إلى حدود المدينة الجنوبية ، يصاحبنا نغم متناسق بخاتمة مهيبة، حيث نسمع لحنا لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن أعيننا فى تحد قوى.

وحين نصعد إلى قمة القلعة ، بعيدا عن الزحام وضوضاء الطريق ، ننظر تحتنا إلى «آلاف من الأبنية البيضاء المتداعية، والآثار ، والجبانات، وعدد لايحصى من القباب والمآذن الدقيقة المزركشة»، فتبدو وكأنها غابة من القلاع «تتجه إلى السماء»، مرتفعة فى كل مكان فوق مجموعات من المكعبات.

كانت القاهرة العظمى، كما يسميها الرحالة من الأوروبيين، عاصمة سياسية منذ بدء وجودها . ونظرا لكونها مركزا شيعيا، فمن المرجح أن المدينة كانت مكروهة ، كما كانت هناك محاولة لمنع انتشار نفوذها بنوع من السياج الوقائى . وكان للمدينة فوق ذلك منافسون فى ذلك الوقت، ولو أن هذه المنافسة اقتصرت ، من ناحية ، على بغداد، العاصمة القديمة للدولة الإسلامية والتى حلت محل دمشق، ومن ناحية أخرى ، على مدينة قرطبة التى كانت عاصمة لحضارة فريدة . وتحت حكم السلاطين المملوكيين، أصبحت القاهرة بمثابة عاصمة عالمية ، مع بقائها مركزا إسلاميا، كما أصبحت وجهة أنظار الأوروبيين بسبب الرخاء التجارى الذى نعمت به .

جاستون فييت

نويى – سير – سان

١٣ تموز (يوليه)، ١٩٦٤

(١)

العواصم الإسلامية الأولى

إن دراسة القاهرة فى الفترة السابقة لقيامها التاريخى تعين علينا تناول مشكلة موقع العواصم الإسلامية لمصر . وقد كانت هذه العواصم فى أول الأمر مدنا إقليمية هامة قبل أن تصبح عواصم بالمعنى الصحيح .

كانت هناك عند الفتح العربى، قبل كل شئ، مدينة الاسكندرية ، ولكنها لم تناسب العرب الذين كان عليهم أن يبقوا على اتصال بالمدينة أولا، ثم بدمشق ثانيا ؛ وبعد ذلك أصبحت بغداد مصدر السلطة فى الدولة العربية.

نمت المدينة الأولى، الفسطاط، التى كانت مركزا اداريا وعسكريا ، حول حصن بابلى بيزنطى. وحسب قصة طريفة، قبلت على أنها حقيقة تاريخية فى الشرق وفى الغرب على حد سواء، فإن المدينة نمت تدريجيًا حول فسطاط (خيمة) القائد ، الذى عششت عليه وأفرخت يمامة برية [١]. ولقد أخذت هذه القصة مأخذ الصدق إلى أن اكتشفت بردية مكتوب عليها باللغتين اليونانية والعربية أظهرت العلاقة بين الكلمة العربية «الفسطاط» والكلمة اليونانية Phossa-ton ، ومعناها : المعسكر الذى يحيط به خندق [٢]. ولم يختلط المسلمون ، باعتبارهم القوة المحاربة ، مع السكان الأصليين . ولأغراض الأمن، ظل المسلمون فى مكان واحد ، وقسموا إلى جماعات حسب قبائلهم، وذلك ليكونوا مجموعة متماسكة فى الفسطاط وضواحيها على الأقل. وسرعان ما اتخذت الفسطاط مظهر المدينة، بجامعها الكبير الذى لزم توسيعه فى الحال، وبأسواقها التى أحاطت بالجامع .

١- أنظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١ : ٦٤ (ط. القاهرة ، ١٩٦٣) ؛ وفى الخطط للمقريزى ١ : ٢٩٦ (ط. بولاق ، ١٢٧٠) : «أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرخ».

٢- أنظر مصر فى فجر الإسلام للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف : ٢٤٤ (القاهرة، ١٩٤٧) ؛ والكلمة باللاتينية أصلا هى : fossatum .

ولقد أجمل أحد المؤرخين العرب فى براعة وصف نمو القاهرة فيما بعد ، مثل قيام العواصم ناحية الشمال، على النحو التالى:

وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين إلى مصر وفتح الحصن واختط مدينة فسطاط مصر، فصارت دار الامارة من حينئذ بالفسطاط، إلى أن زالت دولة بنى أمية وقدمت عساكر بنى العباس إلى مصر، وبنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر . فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر وتارة فى الفسطاط ، إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر والميدان وانشأ القطائع بجانب العسكر، فصارت القطائع منازل الطولونية إلى أن زالت دولتهم. فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر المعز لدين الله، وبنى القاهرة المعزية . فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة، ومقر الامامة ، ومنزل الملك، إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر، بنى قلعة الجبل هذه ومات ، فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب. واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده، إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من بعدهم، فاستقروا بقلعة الجبل إلى يومنا هذا[١] .

لقد أقيمت هذه المدن المختلفة لأغراض عسكرية . ونظرا لأنه لم يكن هناك خطر من جانب عدو خارجي، فإنه من الأصح أن نقول أن هذه المدن بنيت بغرض حماية رئيس الدولة ضد الثورات. وليست هذه الحالة فريدة فى العالم الإسلامى.

من الناحية السياسية والفنية، يبدأ التاريخ الحقيقى لمصر الإسلامية المستقلة بابن طولون . فحين وجد هذا الأمير أن العسكر غير آمنة، رغب فى أن تكون له عاصمة وقصر ومسجد لتخلد ذكراه . ومع أن الأسرة الطولونية لم تعمر طويلا ، إلا أنه يحق لنا أن نتحدث عن الدولة الطولونية والفن الطولونى .

وقد اتخذ ابن طولون مدينة سامرا، وهى المدينة الرافدية التى نشأ فيها، مثالا له، فخطط فى داخل محيط دائرى رسما للقطائع التى ستمنح للضباط والموظفين والأفراد، كما رسم مخططا للمسجد الجامع والأسواق التى ستحيط به . وكانت صفوف الأسواق ممتدة وتنقسم حسب التخصص التجارى؛ وقد استخدمت هذه الطريقة ذاتها فى تقسيم جماعات السكان

١- الخطط ٢ : ٢٠١ .

المختلفة . وهكذا بنيت المدينة الجديدة للجيش والادارة والتجارة التى لاغنى عنها للحياة اليومية فى الدولة. وقد خصصت مساحة كبيرة إلى الشرق من المدينة، بالقرب من سفوح جبل المقطم، لركوب الخيل والسباق. وكانت التدريبات والعروض العسكرية تقام هناك أيضا.

وكان عرض الجيش الطولونى على هذه الساحة مشهورا فى جميع أرجاء العالم الإسلامى فى ذلك العصر، ويقارن الكتاب بينه وبين الجمعة ببغداد، التى كانت تقام بحضور الخليفة. وقد اتخذ خمارويه ، ابن أحمد بن طولون ، فى حرسه الخاص ، أفرادا أشداء أقوياء، لوحظ فى اختيارهم الطول والضخامة . كما كانت لديه قوة من الزنوج ، يمرون فى العرض، تلف رؤوسهم عمامات سوداء وتغطى صدورهم دروع حديدية تلبس فوقها قمصان سوداء، فكانوا أشبه بمحيط أسود متدافع ، بتأثير لون بشرتهم وملابسهم.

وبدأ ظهور البذخ فى مصر فى أيام هذا الأمير الأخير. فإنه زين القصر ووسعه، وأضاف إليه حديقة صناعية بأشجار مفضضة ومذهبة ، على طريقة أهل العراق التى أعجب بها رسل بيزنطة أيما إعجاب . كما ضمت هذه الحديقة أيضا نباتات زكية الرائحة ، وأشجارا من أندر الأنواع . وكانت هناك حديقة للحيوان تربى فيها الخيول المنتقاة ، والجمال، والنمور ، والفهود، والأفيال، والزرافات . وكان خمارويه قد استأنس سبعا لم يبرح جانبه قط، وأحاط نفسه بعدد ضخم من الحسناوات الصغيرات، اللاتى قضى معهن فيما يبدو أكثر أيام حياته .

وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصورة حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه .. وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين والكودان المرصعة بأصناف الجواهر وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة [١].

بيد أن كل شئ قد اختفى، بعد أن قضت عليه أحقاد الخلافة العباسية بالدمار، ولكن تلك الأحقاد لم تجرؤ على أن تهاجم المسجد الجديد. وهذا البناء الذى هو من تصور ابن طولون «يمثل لنا روحا تتميز بالخشونة والطموح والاباء». هنا يشعر الانسان بعمق العاطفة الدينية، كما يتأثر بالبساطة الرائعة فى التصميم ، تلك البساطة التى لم تمنع المهندس من أن يباين بين الضوء الباهر فى الصحن والظل فى الأروقة ، وأن يزيد من حدة التباين بتضخيم الأعمدة . وفى داخل المسجد ، فى وسط ساحة يبعث طهرها على التفكير العميق، يجد الانسان نفسه

١- الخطط ١ : ٣١٦ .

وقد انغمس فى جو من التأمل الدينى الذى يوحى به اتساق الخطوط، والعمق الغامض للأروقة، وارتفاع العقود الشاهق، الذى خفف من صرامتها ما بها من نوافذ، ثم زاد من رقتها نتوءات الزخرفة للجامات الوردية التى تتوج أعالى الجدران. إن الأجزاء القليلة من الزخارف على الجص تجعل الإنسان يفكر فى الفنانين وفيما يبدو فى عملهم من حرج ظاهر متعمد؛ لقد وضعوا أساسا تخطيطيا لاتستطيع الأجيال المقبلة إلا أن تجمله.

أما مأذنة المسجد ، فقد أعيد بناؤها فى القرن الثالث عشر، ولكنها شكلت حتما على نمط المأذنة القديمة التى تذكرنا- كنموذجها الأصلى فى مسجد سامرا- بهياكل النار فى العبادة الزرادشتية. ويفسر الشكل الغريب للمأذنة قصة طريفة يوردها مؤرخ[١] معاصر للأمير تقول إن أحمد بن طولون، الذى احتفظ دائما بسمت صارم أثناء مقابلاته ، أخذ قطعة من الورق ذات يوم ولفها حول اصبعه ، مظهرا طرف الاصبع من نهايتها، فنظر الحاضرون بعضهم إلى بعض فى شئ من العجب، محاولين تفسير عمل الأمير. وحين لحظ الأمير استغرابهم، قال مداعبا : « تبنى المنارة التى للتأذين هكذا » .

واقتفى أثر الدولة الطولونية فى استقلالها الاخشيديون، الذين أقاموا حكومة مستقلة قبل وصول الفاطميين إلى مصر مباشرة. وليس هنا مجال الاهتمام بالجوانب السياسية، ولكن لابد من الاشارة إلى حقيقتين حضاريتين على جانب كبير من الأهمية. لقد عاش الرحالة والمؤرخ المسعودى فى مصر فى ذلك الوقت، وتحدث عن الرخاء الاقتصادى فى البلاد فى كتابه الذى ألفه أثناء اقامته هناك ، فقال [٢]:

يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين (بحر الروم وبحر الصين) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس. فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها.

ويجب أن نذكر بصفة خاصة أن الأمراء الاخشيديين شجعوا موهبة المتنبى، ذلك العملاق بين شعراء العربية، الذى يتميز شعره فى المناسبات بنفحات ملحمية جارفة . وإننا لنجد فى شعره القوة الخارقة على التصور ، والسيطرة المطلقة على جميع مصادر وامكانيات فنه، سواء فيما يتعلق بالايقاع أو بالمهارة فى استخدام الكلمات. وبالرغم من احترافه المديح، إلا أن

١- الخطط ٢ : ٢٦٨ ، وزبدة كشف الممالك لخليل الظاهرى: ١٣٠(ط. باريس ١٨٩٤م) .

٢- التنبيه والاشراف للمسعودى : ١٩ (ط. القاهرة) .

عبقريته الفذة أنقذته من الاسفاف . وما من شك أنه يرجع إليه بعض الفضل فى أن الأجيال اللاحقة لاتزال تذكر الاخشيديين بشئ من الاجلال .

ولقد اتخذت هاتان الدولتان المستقلتان اتجاها جديدا تجاه الاقلية المسيحية، ولعل السبب فى ذلك هو الرغبة فى كسب الرأى العام فى وجه الخلافة فى بغداد. ويكفى أن نورد هنا الوصف التالى الذى أورده المسعودى والذى يرجع إلى عام ٩٤١م؛ قال [١]:

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر، والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة (الروضة) .....، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط، لايتناكرون الحضور، ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ؛ وهى أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سروراً ، ولاتغلق فيها الدروب . ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء.

تتميز النظم السياسية الإسلامية بالمركزية. ولهذا ، فإنه يمكن ارجاع النجاح فى العمل المزدوج الذى قام به السادة الجدد- وهو صبغ البلاد بالصبغتين الإسلامية والعربية- إلى العاصمة فى مصر ، تحت توجيهات الخلافة بطبيعة الحال.

ولقد عرض وليام مارسيه بوضوح لموقف المسلمين الأولين من مشكلات التعليم، فقال :

«إن أهداف التعليم فى المجتمع الاسلامى تهتم، أو لعلها تختلط ، بالرغبة فى تمكين كل شخص من أن يؤدى واجباته الدينية، وتدعيم عقيدة المؤمنين ، ونشر الاسلام بين الكفار . ويعتبر من واجبات الحكام الأساسية العمل بين رعاياهم على نشر المعرفة النافعة بين كل من يعتنق الاسلام».

وإن نظرة سريعة إلى الخطوات التى أدت إلى نشر الاسلام بين الأقباط تظهر أن المسيحيين أصبحوا أقلية فى القرن التاسع الميلادى، أى بعد مائتى سنة من الفتح العربى ؛ وكان هذا يعتبر حينئذ نصرا سريعا. ففى الفسطاط - وهو ما يهمنا بصفة خاصة- تم التعريب بسرعة

١- مروج الذهب للمسعودى ١ : ٣٤٣ (ط. الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد) ؛ وانظر أيضا الخطط ١ : ٢٦٥ .

أيضا، وكادت العربية فى أقل من ثلاثة قرون أن تزيل تماما منافستها اللغة القبطية . وأهم وثيقة لدينا فى هذا الصدد هى مقدمة ساويروس الاشمونى لكتابه «تاريخ بطاركة الاسكندرية» ، والذى كتب فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، حيث يقول [١]:

«فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الاخوة المسيحين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليونانى إلى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم» .

وكان المسجد منذ البداية مركزا للتعليم . وهو أمر طبيعى ، لأن الغاية من التعليم هى إعداد متخصصين فى القرآن والحديث. ويعنى هذا معرفة النصوص الدينية عن ظهر قلب، وترديدها دون ارتكاب أخطاء فى تذكرها ، ودون أخطاء نحوية. وكان الفرد يستطيع عن هذا الطريق أن يصبح مسلما صحيحا وداعية يتصف بالجد والعزيمة. وكان العالم فى الدراسات القرآنية لاغنى عنه فى جميع المساجد. ويقول ابن جبير [٢]:

«وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلمون الخط فى الأشعار وغيرها، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو. وقد يكون فى أكثر البلاد الملقن على حدة والمُكتِّب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب ».

وهناك نوع من التعليم الخاص ، عن طريق تخصيص مبلغ من المال تدفع منه مكافأة لكل شخص يحاضر جالسا فى مسجد ومستندا إلى أحد الأعمدة. كما قامت الجمعيات الخيرية بمساعدة الأيتام الذين وجد أنهم يفيدون من التربية الدينية . ومنذ القرن السابع، ظهر فى الفسطاط عدد من المحدثين اللامعين . وقام إلى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء طائفة من الخطباء الشعبيين ذوى المقدرة ، ممن استمدوا مادتهم من قصائد الهجاء القديمة.

وهكذا اتجه المنهاج التعليمى نحو الاعتماد على الذاكرة . ومنذ البداية، لعبت الكتابة دوراً ضئيلا ، وكان لهذه الحقيقة الهامة تأثير كبير على النظم التعليمية لعدة قرون. كانت هذه هى الطريقة التى اتبعها مرتلو القرآن وقراؤه منذ أقدم العصور الإسلامية. وعلى أى حال،

١- تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية بالاسكندرية، لساويروس ابن المقفع الاشمونى History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria , Patrologia Orientais , Tome I, p. 17 (115) .

٢- رحلة ابن جبير : ٢٤٥ (ط. بيروت)، و٢٧٢ (ط. أوروبة) .

كان الطفل يتعلم القراءة والكتابة، وما هما بالأمر الهين. وبعد ذلك، كان الدارس يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويرتله حسب قواعد دقيقة معينة فى علم القراءات .

لهذا ، كان القرآن هو الأساس الذى تقوم عليه تربية الرجل المسلم وتعليمه . فكان التلاميذ يبدأون بقراءة النص كاملا؛ وبعد ذلك يطلب إليهم أن يستظهروا منه أكبر قدر يستطيعونه. وبعد تحليل النص بأكمله تحليلا نحويا ، يكلف الأساتذة التلاميذ بنسخه بشكله التقليدى . وخلال هذه العملية، يقوم الأساتذة بتفسير النص . ولم يكن استظهار القرآن مجرد دليل على الثقافة فحسب. ولكنه كان يميز الرجل العالم بين قرنائه . وقد حرص المؤرخون على أن يحفظوا للأجيال التالية أسماء أولئك الذين وهبوا أنفسهم لهذه الرياضة الذهنية .

ومما لاشك فيه كذلك ، أن غرضا آخر من أغراض التعليم كان الحرص منذ البداية على حفظ الحديث . وكان البرنامج يتكون من قسمين : القسم الاجبارى ويختص بتعليم القرآن والتربية الدينية والقراءة والكتابة؛ والقسم الاختيارى ويشتمل على تاريخ ما قبل الاسلام وسيرة الرسول والصحابة والشعر والنحو والانشاء والمفردات والحساب والخط . لهذا ، تعددت أساليب تنشيط الذاكرة ، إذ لانعرف فى غير هذا الأدب تلك الثروة من الشعر التعليمى التى تقدم للطالب دراسات فى الفلك والرياضيات والتاريخ ، وفى القانون على وجه الخصوص . «ولم يضعف الاعتقاد فى المبدأ القائل بأن نقل المعرفة عن طريق الرواية هو وحده الصحيح » إلا بحلول القرن الثامن واكتشاف الورق.

ولم تسمح بعض كتابات الملتزمين بالتعليم الابتدائي للأطفال فى المساجد ، خوفا من أن يلوثوا الجدران . واقترحوا أن تقام الفصول فى الدكاكين التى تقع على الطريق أو على جوانب الأسواق . وقد أقيمت معظم الفصول فى أماكن ضيقة جدا، باستثناء تلك التى كانت تعقد فى الهواء الطلق . ويمكننا أن نقدم صورة لما كانت عليه المدرسة الابتدائية فى العصور الوسطى حسب ما لدينا من أوصاف حديثة. كان جميع التلاميذ يجتمعون فى مكان واحد ، وينشدون ويتعلمون ما يقرر عليهم من الدروس بصوت عال . ويمكننا أن نتصور الصوت الذى كان يسمع فى الفصل؛ وحتى يتمكن المدرسون من تحمله ، كان عليهم أن يعتادوا عليه تماما . وإلى جانب الترتيل عند إنشاد الدروس أو قراءتها، كما كان يحدث فى جميع البلاد، كان الأطفال يهزون نصف أجسامهم العلوى إلى الأمام والخلف. هذه الحركة الدائبة ، بالإضافة إلى الصوت النشاز المنبعث من مجموع تلك الأصوات ، جعلت منظر المدارس العربية يبدو غريبا . وكان الأطفال الذين لايقومون بواجباتهم أو يسيئون السلوك أمام أساتذتهم يعاقبون بشدة. فكان

التلميذ المذنب يلقى على ظهره على الأرض، بينما يرفع المساعد رجليه عاليا ريثما يثبت الشيخ قدميه فى «الفلقة»، وهى أداة شبيهة ببعض أدوات التعذيب التى استخدمت منذ العصر البيزنطى وحتى الأزمنة الحديثة. وعند ذلك يضرب الشيخ قدمى الضحية بغصن رفيع من الجريد. وقد كان ينظر إلى مهنة المعلم باحتقار ، فشاع التعبير القائل «أحمق من معلم». ولم تقتصر هذه النظرة على الحضارة العربية.

أما التعليم فى المرحلة الأعلى فكان يتم فى المساجد. فمنظر الطلبة وقد جلسوا على شكل حلقة حول الأستاذ ، الذى كان يجلس مستندا إلى أحد أعمدة المسجد، يمثل لنا صورة مألوفة لازلنا نراها إلى وقتنا هذا. وكان التلاميذ، سواء فى التعليم الأولى، أو فى حلقات المساجد، أو فى المدارس الاسلامية فيما بعد ، يجلسون على حصر مبسوطة على الأرض. ولقد لقى أساتذة المراحل العليا العنت الشديد فى حفظ النظام أثناء دروسهم. فقد كان هناك سيل مستمر من الأسئلة من الطلبة الذين لايحجمون عن طلب الايضاحات والشروح. وقد شكا بعض الأساتذة من ذلك بمرارة. ولعل هذا الوصف الحديث يصدق أيضا على الفصول فى جميع العصور:

ويمكن للمرء أن يرى عمامة الأستاذ ، وقد جلس القرفصاء على جلد كبش، وأمام قدميه العاريتين منديل وزوج من النعال . وكان يجلس حول العمود الذى يستند إليه ثلاثة صفوف من المستمعين ، يشبهون بجلستهم فروع القلادة . وكان هؤلاء أيضا حفاة الأقدام ، قد وضعوا نعالهم أمامهم بعناية ، كما يفعل بعض الباعة فى الأسواق .

وكان لزاما على الطالب أثناء تلقيه التعليم الدينى، أن يتعلم اللغة العربية باتقان ، حتى يمكنه أن يفهم كتاب الله فهما صحيحا . وما كانت هذه الدراسة اللغوية ممكنة إلا عن طريق دراسة متعمقة للشعر العربى.

ويمكننا الآن أن نفهم حماسة الرحالة الفارسى ناصر خسرو، فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، عندما وصف نتيجة الرسالة التعليمية لمسجد الفسطاط الكبير على هذا النحو بقوله[١]:

١- سفر نامه لناصر خسرو : ٥٩ (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب).

« يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، في أي وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم، والغرباء . والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها ».

في الوقت الذي كتبت فيه هذه الكلمات ، كانت الشيعة هي المذهب الرسمي للدولة في مصر . وإذا ما تذكرنا أن الاسكندرية كانت منذ القرون الأولى للعصر المسيحي مركزا نشطا للهرطقة ، فإنه يهمنا أن نلاحظ أنه منذ وصول العرب، تجنبت البلاد بصفة عامة الانقسامات الدينية والسياسية التي مزقت شمل العراق وفارس وشمال افريقية . ومما لاشك فيه، أن بعض الأفراد دافعوا عن النظريات المنشقة ؛ ولكن مصر- التي ظلت خارج نطاق صراع الخوارج وجميع ما تخلف عنهم من فرق- لم تبد اهتماما بقضايا الجبر والاختيار، وكادت أن تتجنب تماما حركات الاضطهاد التي تعرض لها المعتزلة.

ولعل من المفيد في هذا المجال أن نذكر أن فقيه الاسلام الكبير الامام الشافعي قضى الأعوام الأخيرة من حياته في مصر، حيث دفن . وأن الدور الذي قام به في تنمية التشريع الإسلامي لبالغ الأهمية، ولايمكن أن نفيه حقه، لأنه كان بحق واضع أساس التنظيم العلمي في حقل التشريع الديني. فقد أوجد مذهبا متكاملا بطريقة علمية. ويجب أن نذكر أنه كان هناك اتجاهان في ذلك الوقت : اتجاه أهل الحديث ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المدرسة التاريخية ، والذين يبنون القانون الأخلاقي برمته تقريبا على الحديث ، دون تحريم للقياس والرأي الشخصي تحريما مطلقا عند الحاجة، واتجاه أهل الرأي ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المذهب العقلي- في شئ من الاحتراس- وهؤلاء يبدأون موقفهم أيضا باحترام كبير للحديث ، ولكن نظرا لأنهم شعروا بقلة المادة الموثوق منها، فقد فتحوا الباب للاجتهاد الشخصي .

وقد عمل الشافعي على التوفيق بين الاتجاهين . فنحن مدينون له بالتعريف والتطبيق الدقيق لمصادر التشريع الأربعة ، وهي القرآن والحديث والاجماع والقياس. وترجع أصالته إلى أنه جعل الاجماع يمتد ليشمل الجماعة بأسرها . وقد منح ذلك قوة قانونية لتقليد معترف به من الجميع . ومن ثم نشأ القول القائل بعدم خطأ الجماعة، التي يحددها الشافعيون باجماع أصحاب الرأي في زمن معين .

ومهما كان الأمر، فإن الفسطاط- قبل انشاء القاهرة- لم تكن بأى حال مركزا لنشاط أدبى أو دينى يمكن أن يقارن فى الأهمية بينه وبين مدن مثل بغداد والبصرة والكوفة.

ونختم هذه الحقبة بذكر شخصية تاريخية يصعب التعريف بها، وهى ذو النون الذى يدعيه كل من المتصوفة والكيميائيين والقبليين . وتتسم بعض فقرات من كتاباته - وهى حكم وأمثال وقصص - بطابع صوفى. وقد ترك لنا هذا التعريف لألوهية الله بقوله : « وكل ما تصور فى وهمك ، فالله بخلاف ذلك »[1].

١- الرسالة القشيرية للامام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى : ٤ (ط. القاهرة، ١٩٤٠) .

(٢)

قاهـرة الفاطميين

لم تتعد عاصمة ابن طولون مرتبة المدينة الاقليمية . وقد كان لهذه الحقيقة تأثيرها النسبى على الغضب المدمر الذى بدا من قائد الجيوش العباسية عند سقوط الأسرة . أما القاهرة ، فقد كتب لها أن تتمتع بمجد أبقى.

كان حكام مصر قد بدأوا يتجهون شمالا ، حتى قبل دولة الفاطميين. فنجد أن آخر الاخشيديين انشأ حديقة كافور بعيدا عن موقع العسكر والفسطاط. وقد بنيت هذه الحديقة الكبيرة- التى حافظ الفاطميون على جزء منها- على مستوى المسجد الاقمر ذاته ، وكان يحدها الخليج. وكان حكام القاهرة يصلون إلى هذا المكان- الذى أصبح حديقتهم الخاصة- عن طريق سرداب تحت الأرض.

القاهرة مدينة جديدة انشئت حيث لم يوجد شئ من قبل، وعلى موقع اختير مقدما اختيارا محددا ، على سهل رملى . وحسب الرسم الذى كان الخليفة نفسه قد صممه فى شمال أفريقية، قام جوهر ، قائد الجيوش الفاطمية ، فى الليلة الأولى من وصوله إلى الفسطاط ، بتخطيط موقع أسوار القاهرة شمالى القلعة القديمة، كما وضع أساس القصر الملكى . وكما حدث عند تأسيس بغداد ، قبل ذلك بزمن طويل، حين حدد أقدر الخبراء الوقت الذى تكون فيه النجوم فأل خير لمثل هذا العمل، اتخذت اجراءات مماثلة عند تأسيس القاهرة.

... إن جوهرا ، لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة[١]، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس وطالعا لرمى حجارته ؛ فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ، وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس ، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما فى أيديهم من اللبن والحجارة ، ووقف المنجمون لتحديد هذه الساعة وأخذ الطالع. فاتفق وقوف غراب على

١- النجوم الزاهرة ٤ : ٤١ ؛ وراجع أيضا الخطط ١ : ٣٧٧ .

خشبة من تلك الخشب، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها فالقوا ما بأيديهم من الطين الحجارة في الأساس؛ فصاح المنجمون : لا لا ، القاهر في الطالع ! ومضى ذلك وفاتهم ما قصدوه. وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لايخرج البلد عن نسلهم أبدا. فوقع أن المريخ كان في الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر... ولهذا سميت المدينة القاهرة.

تأسست مدينة القاهرة في يوم ٦ تموز (يوليه) سنة ٩٦٩، وعينت الأحياء لمختلف الجند بعد ذلك بستة أشهر . وامتدت المدينة الجديدة من المأذنة الجنوبية لمسجد الحاكم إلى باب زويلة . وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحديثة ذاتها؛ أما من ناحية الغرب ، فلم تتعد القناة. وقد بنى القصر الملكى مع المدينة في وقت واحد ، وامتدت واجهته الغربية من المسجد الأقمر حتى مدرسة الملك الصالح أيوب . ووضع أول حجر في الجامع الأزهر في يوم ٤ نيسان (أبريل) سنة ٩٧٠ ، وتم بناؤه يوم ٢٢ حزيران (يونيه) سنة ٩٧٢ .

وهكذا ولدت مدينة، ستصبح فيما بعد هدفا لعداوة مريرة من جانب أهل السنة، وذلك بسبب ميولها الدينية المخالفة لهم. وفي الواقع، كان وصول الفاطميين إلى السلطة في مصر انقلابا غير عادي. فمنذ استيلائهم على السلطة في شمال أفريقية ، أصبحوا منافسين للعباسيين في بغداد. وبعد ذلك بقليل ، في سنة ٩٢٩، حذا الأمير الأموى في قرطبة حذو الفاطميين أنفسهم في الاتجاه إلى الرأى العام، واعتبر أن من حقه أيضا اتخاذ لقب خليفة . وقرر في رسالته إلى الناس «وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا اضعناه، واسم ثابت أسقطناه»[١]. هذا العصر يمكن أن يسمى عصر «الانقسام الأكبر» نظرا لتعدد الخلافات . وهذه التسمية صحيحة، لأنه إذا كان الخلفاء في بغداد وقرطبة يتمسكون بادعاء أنهم قد تمت مبايعتهم بواسطة جماعة يصعب تحديدها من أهل الرأى ، فإن الخليفة الفاطمى أو الإمام يقيم حقه على دعوى خاصة. فتوليه الخلافة لايعتمد على أمور عادية مثل رأى الجماعة، وإنما هو معين بحكم نسبه المقدس، وهو منزه عن الخطأ .

١- نص الكتاب الذى تلقب فيه عبد الرحمن الثالث بألقاب الخلافة سنة ٣١٦هـ (٩٢٩م) في كتاب :

Una Cronica Anonima de Abd Al- Rahman III al Nasir , ed . par Levi- Provençal Y Emilio Garcia Gomez, Madrid - Granada , 1950 . p. 79 .

وبنيت البيوت لرجال الجيش وأسرهم، كما انشئت حوانيت تجارية خاصة لخدمتهم. وبينما ارتفعت الأسوار وأخذ أساس القصور والجامع الأزهر الكبير فى العلو، كان جنود جوهر يبنون البيوت ، وكان المعسكر يتحول إلى مدينة. وعندما قسمت الأرض داخل الأسوار بين فرق الجيش المختلفة، ابتنت كل فرقة لنفسها خطة وأطلقت عليها اسمها أو اسم قائدها. وكانت القاهرة فى ذلك الوقت تنقسم إلى قسمين متساويين تقريبا بواسطة قصبة كبيرة تمتد بازاء الخليج، الذى كان يجرى غربا . وتخرج شوارع القسمين الرئيسيين فى المدينة من جانبى القصبة[١].

ووجدت غربى القناة حدائق امتدت إلى ضفاف النيل وكثيرا ما كنت ترى فيها أعدادا كبيرة من المتعطلين أو المتنزهين ممن يطلبون اللهو والتسلية . وعندما تبلغ مياه النيل أقصى ارتفاعها ، يقصد الخليفة احدى القاعات التى تقام فى السهل، حيث تقام مهرجانات شعبية كبرى.

فى هذه المدينة الاقليمية العسكرية ، لم تكن العناية بالطرق أمرا عسيرا. وكانت القرب المائية المصنوعة من جلود الماعز والتى كانت تنقل على ظهور الجمال أو البغال تغطى حتى لايصيب ما يتساقط منها المارة . وبالإضافة إلى ذلك ، كان لزاما على كل صاحب متجر أن يحتفظ أمام حانوته بوعاء كبير ممتلئ بالماء ليساعد به فى اطفاء النيران. وهناك أمر صدر عن الخليفة الحاكم لايخلو من طرافة. فقد أصدر أمرا فى جميع أرجاء المدينة بأن تضاء الحوانيت والبوابات والميادين والطرق العامة والحارات المسدودة. ثم أخذ الناس يبالغون فى استخدام المصابيح فى الشوارع والأزقة . فكانت الأضواء تظل مشتعلة طوال الليل فى الأسواق المسقوفة والمكشوفة فى القاهرة وفى مصر القديمة، يتزاحم عليها المشترون . كما انفقت أموال كثيرة فى حفلات الأكل والشراب والطرب. وسرعان ما ضاق الخليفة الحاكم - الذى لاتحتاج نزواته إلى مزيد من الاشارة- فأصدر أمرا مشددا بحظر التجول ليلا.

ولقد امضى رحالة فارسى بعض الوقت فى القاهرة وامتدحها أجمل المدح بهذا الوصف [١]:

... وهكذا بنيت هذه المدينة التى قل نظيرها . وقد قدرت أن فى القاهرة ما لايقل عن

١- المعنى فى الخطط ١ : ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ؛ وانظر كتاب : القاهرة : تاريخها وآثارها لعبد الرحمن زكى : ١٠ (ط. القاهرة ، ١٩٦٦) .

٢- سفر نامه: ٤٧-٥٠ .

عشرين ألف دكان، كلها ملك السلطان ، ... والأربطة والحمامات والأبنية العامة الأخرى كثيرة لايحدها الحصر ، وكلها ملك السلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقارا أو بيتا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه . وسمعت أن للسلطان عشرين ألف بيت[١] فى القاهرة ومصر، وأنه يؤجرها ويحصل اجرتها كل شهر. ويستطيع المستأجر أن يستأجر منزلا أو يتركه بمحض ارادته فلايجبر شخص على شئ.

... وليس للمدينة قلعة، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعا من القلعة ، وكل قصر حصن. ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات ... وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار ... وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة. وهى بعيدة عن بعضها : فلاتنمو أشجار بيت على سور بيت آخر .

... ويجلب ماء الشرب من النيل، ينقله السقاؤون على الجمال... ويقال أن فى القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاؤون الروايا (القرب) ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره من القدر النحاسية أو القرب الصغيرة ، وذلك فى الحارات الضيقة التى لاتسير فيها الجمال.

... ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات، ولايتصل به أى بناء ، وكل ما حوله فضاء، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس.

وكانت حراسة القصر ليلا تقترن بعرض مهيب. فبعد الآذان لصلاة العشاء يقوم الامام بالصلاة ، ويتقدم أحد الأمراء إلى سلم القصر؛ وعند انتهاء الصلاة ، يصدر أمره لفرقة من قارعى الطبول ونافخى الأبواق أن يعزفوا ، كما تعزف آلات أخرى قطعا موسيقية جميلة لمدة ساعة تقريبا. ثم يترك القصر ضابط معين خصيصا لهذا الأمر ، فيلوح برمحه ، ويقذف بها أولا إلى الأرض عند المدخل ، ثم يلتقطها ويغلق الباب ويسير حول القصر سبع مرات . وبعد أن يتم جولاته، يقيم العسس الليلى وأفراد الحراسة. وكانت تنصب سلسلة فى أضيق مكان من الميدان الذى يسمى بين القصرين . وابتداء من هذه اللحظة ، يوقف المرور فى الميدان حتى نوبة البوق عند الفجر: عند ذلك ، ترفع السلسلة ويستأنف المرور .

ويستمر دليلنا الفارسى فيقول[٢] :

١- هناك اختلاف بين الرقم الذى يذكره المؤلف ورقم ترجمة الخشاب ، وقد آثرنا اثبات الأول.

٢- سفرنامه : ٤٨-٤٩ .

ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة. وهو لايرى من داخل المدينة لارتفاع أسواره ... وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء. وله عشرة أبواب فوق الأرض. فضلا عن أبواب أخرى تحتها ... وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا، وهذا الباب على سرداب يؤدى إلى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم . وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة، تقول أنها قدّت من صخر واحد.

ولندخل القصر مع دليلنا ناصر خسرو [١]:

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصففا وإيوانات ... كان هناك اثنا عشر جناحا، ابنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته أحسن من سابقه ، ... وكان (بأحد هذه الأجنحة) تخت يشغل عرضه بتمامه ... وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث، وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما ؛ كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما فى هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومى والبوقلمون، نسجت على قدر كل موضع تشغله وحول التخت درابزين من الذهب المشبك، يفوق حد الوصف . ومن خلف التخت بجانب الحائط ، درجات من الفضة ... وقد رأيت على المائدة شجرة أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضا.

وهناك تقرير يستحق اهتمامنا كتبه وليام الصورى عن زيارة سفراء الفرنجة للقاهرة سنة ١١٦٧م. ذلك أن الرسل - الذين قادهم الوزير شاور بنفسه - أخذوا أولا إلى قصر رائع الجمال، ، عظيم الزخرفة. وهناك رافقهم عدد كبير من الحرس ، يسيرون أمامهم ، ويحملون سيوفهم مسلولة . وبعد أن اقتيدوا خلال ممرات طويلة ضيقة تعلوها أقبية ، حيث لم يمكنهم رؤية شئ بسبب الظلمة التامة ، وجد الرسل أنفسهم فى مكان مضئ ، ورأوا سلسلة من الأبواب. وكان عند كل باب حراس عديدون. وعند اقتراب شاور ، كانوا يقفون فى الحال ويؤدون له التحية فى اجلال. بعد ذلك ، وصل الرسل إلى فناء خارجي تحيط به أروقة فخمة ذات عمد. وقد رصف الفناء بأسره بالرخام الملون المحلى بذهب خالص ثمين ، كما غطيت الدعامات السقفية كلها بالذهب، مما جعل المكان غاية فى الجمال والامتاع للنظر، حتى أن أكثر الناس انشغال بال كان يتوقف ليحملق فيه. وفى وسط الفناء نافورة تنبعث منها المياه

١- المصدر نفسه : ٦٣-٦٤ .

الصافية عن طريق أنابيب ذهبية وفضية إلى قنوات وأحواض مرصوفة بالرخام ؛ وكنا نرى فى كل مكان طيورا سابحات من أشكال شتى، ذات ألوان نادرة ، ومن أجمل الأنواع التى جلبت من جميع أقطار الشرق. وكان كل من رآها يعجب بها ويقول إن طبيعة ناضرة قد ابدعتها . وقد اختلفت طبائع الطيور ؛ فمنها من لزم النافورات، ومنها من بقى بعيدا عنها. وكان يقدم لكل طائر الغذاء المناسب له . هنا، مضت جماعة الحراس الأولى التى كانت قد رافقت المحاربين الفرنجة ، وحل محلهم في الحال قوم أكثر أهمية، ممن كانوا على علاقة أوثق بالخليفة. فقاد هؤلاء الأدلاء الجدد الرسل خلال أروقة أكثر جمالا ، وخلال حديقة فاقت سابقتها فخامة وروعة . وهناك رأوا مجموعات من الحيوانات غاية فى الغرابة ، بحيث أن أى شخص يصفها سوف يتهم بالكذب، كما يستحيل على أى فنان رسمها حتى فى أحلامه . وبعد أن مروا خلال مزيد كثير من الأبواب وعبروا مزيدا كثيرا من الممرات، وبعد أن رأوا أشياء جديدة مما بهرهم أكثر من ذى قبل، وصلوا أخيرا إلى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وهو أكثر بذخا من أي شئ رأوه حتى الآن . وكانت الساحات تعج بالجند المسلحين من العرب، وقد تقلدوا أسلحة متلألئة من الذهب والفضة ، ويبدا عليهم الاعتزاز بالكنوز التى يحرسونها . ثم أدخل رؤساء الفرنجة إلى غرفة فسيحة تنقسم إلى قسمين بواسطة ستارة تمتد من حائط إلى آخر، قد نسجت عليها صور حيوانات وطيور وأشخاص ، وترصعها الأحجار من الياقوت والزمرد وآلاف من الأحجار الكريمة ولم يكن هناك أحد فى هذه الغرفة؛ مع ذلك، فما أن دخل شاور، حتى سجد على الأرض كأنه يصلى، ثم وقف وسجد مرة أخرى، وألقى سيفه الذى كان يتدلى من عنقه؛ ومرة ثالثة، سجد على الأرض وبقى على هذه الصورة فى خضوع تام. وفجأة ، وفى لمح البرق، رفعت حبائل الستارة المفضضة المذهبة مثل الحجاب، وكانت تحجب الجزء الأمامى من الغرفة ، وظهر الخليفة الطفل أمام الأعين المبهورة من الرسل اللاتين. وكان وجه هذا الأمير الغامض مغطى تماما بحجاب . وكان يجلس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والحجارة الكريمة.

ويجد بنا أن نقف برهة لنتمعن فى الأخشاب المحفورة التى وصلتنا من هذه القصور . فهذا الحفر الذى استحق شهرته العظيمة يقدم لنا مناظر متتابعة على نحو غير متوقع: من مناظر الصيد، وحفلات الموسيقى والرقص، ومجالس الشراب. ولم يهمل الفنانون الذين تخيلوا هذه المناظر ما تحتاج إليه من توازن وتخطيط منظم. وبعض الأجزاء تصور أيضا مجموعات من الحيوانات يواجه بعضها بعضا، بعضها ساكن فى أوضاع هادئة جميلة، ولكن أكثرها صوّر

وكأنه ينبض بالحركة . والطابع العام هو الاطراد ، مع زخرفة متعاقبة من أشكال هندسية هلالية وسداسية مستطيلة . ويستمر هذا التباين في التوزيع مع التناسق في الأشكال الهندسية التي تتكرر بطريقة منتظمة عن يمين وشمال المنظر الأوسط . وقد رتبت الزخرفة على مستويين: صور بشرية صغيرة ، وصور حيوانات وطيور تظهر أمام خلفية من الأشكال اللولبية والأوراق الثلاثية، وهي أقل بروزا في الحفر. ويحد كل منظر اطار مزدوج المناظر . وحين ننظر إليها في مجموعها، نجدها تمثل الجوانب المختلفة لحياة الملك. وتعتبر أعمال الحفر الخشبية هذه، باتزانها المقصود، من بين روائع فن رسم الظل (السيلوويت) . وحيث أن تصوير ثنيات الملابس تصويرا متقنا كان أمرا عسيرا ، فيجب علينا أن نشيد بالبساطة في التصميم التي مارسها هؤلاء الفنانون لإظهار خطوات الرقص بحيوية دافقة . وقد تمكن الفنانون الذين قاموا بعمل هذه المحفورات أن يخرجوا لنا صورا تشيع فيها البهجة ، وتكاد تنبض بالجمال الحسي. فالتصور الفني فيها حاد وثوري.

وتقدم لنا هذه الأوصاف تعبيرا بليغا يمكننا من ادراك ما كانت عليه حياة الخلفاء الفاطميين من البذخ . فقد ضمت قصورهم خزائن كثيرة استخدمت كمخازن أو أماكن لحفظ الأشياء النادرة . ومما ذكره الكُتَّاب العرب في هذا الشأن ما يأتي [١]: خزانة الكسوة، حيث حفظت جميع أنواع الثياب والبز التي كان الخلفاء يوزعونها بسخاء على كبار رجال الحاشية على نحو أضر بمالية الدولة؛ وخزانة الجوهر والطيب والطرائف، حيث حفظت مجموعات من الجواهر والأحجار الكريمة وأشياء مختلفة من البلور والصيني والمرايا وأطقم الشطرنج المصنوعة من الأبنوس والعاج والفضة والذهب والصحاف الذهبية للأكل ، بالإضافة إلى كمية هائلة من الطيب والعطور النادرة ؛ وخزانة الفرش والامتعة، وهي مخصصة لحفظ السجاد والأقمشة المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة على أشكال الطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور شئ كثير ، وكذلك الستور الحرير المنسوجة بالذهب منها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، كما ضمت أيضا خياما ضخمة كانت تستخدم في الرحلات- وباختصار جميع المفروشات التي يمتلكها الخليفة ؛ وخزائن السلاح، حيث وجدت شتى نواع الأسلحة من السيوف والرماح والدروع والخوذ والتخافيف والقسي والسهام والنصول ؛ وخزائن السروج ولجم الخيل ؛ وخزانة الشرب؛ وخزانة غريبة للتوابل وأنواع شتى من البهارات والشمع والعسل والسكر المكرر والحلويات المسكرة وزيت السمسم وزيت الزيتون؛ وخزانة البنود التي ضمت

١- أنظر الخطط ١ : ٤٠٨ وما بعدها .

الرايات والأعلام وساريات من الذهب والفضة ، وقد استخدمت أيضا كسجن للضباط وكبار رجال الدولة؛ وأخيرا دار الفطرة ، وكانت تعمل فيها الفطائر والحلوى.

وتمثل لنا القصور والأعمال الفنية البيئة المناسبة لحياة المرح واللامبالاة التى كانت سائدة فى القاهرة . وإننا لنعرف تفصيلا ترتيب الأعياد التى احتفل بها في الدولة الفاطمية، ومنها أعياد كانت مجرد مناسبات لتوزيع الطعام والمال على الفقراء، واقامة الموائد ، وتقديم المنح لموظفى الدولة. وكثيرا ما تلاحقت هذه الفرص للعطاء؛ إذ بالإضافة إلى احتفالات المسلمين السنيين الذين اعترف بهم الفاطميون، وجدت مهرجانات الشيعة، وأعياد المسيحيين، وأيام أخرى للمرح الفتها وثبتتها التقاليد الشعبية للبلاد، مثل المهرجانات الصاخبة لوفاء النيل.

لم يكن الفاطميون أول من كرم الأعياد المسيحية بحضورهم. ومع ذلك ، فإن الرعاية التى حظى بها المسيحيون ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، نمت بوصول الفاطميين. ولاينبغى أن ننسى أن التجارة والزراعة كان أكثرها في أيدى المسيحيين . ونستطيع أن ندرك أيضا أن العقائد الاسماعيلية التى روج لها فى مصر نفَّرت كثيرين من جماهير المسلمين. واتباعا لسياسة حفظ التوازن ، حاول وزراء الفاطميين بطبيعة الحال أن يكتسبوا من المسيحيين التأييد الذى فقدوه عند غيرهم . ويجب أن نضيف أخيرا، أن كثيرا من المناصب الادارية كان يشغلها مسيحيون.

وفيما يتعلق ببعض النفقات العامة فى هذا المجال، فقد ورد مثلا فى ميزانية سنة ١١٢٣م. الأبواب الآتية. نفقات الأعياد الاسلامية والمحلية، ونفقات حاشية القصر، ونفقات استقبالات السفراء ، ومنح الشعراء . ولدينا فى الواقع معلومات تفصيلية عن احتفالات هذه الفترة من القرن الثانى عشر الميلادى، وما تضمنته من ولائم سخية فى القصر ومنح من الخليفة.

وحسب التقاليد المرعية، كان السلطان يقدم احتفالين فى كل سنة ، وذلك فى الأعياد العامة. وكان يدعو اليهما كبار الموظفين والشعب. وكان يحضر الموائد التى يدعو إليها رجال القصر، أما موائد الشعب، فكانت تقام فى المبانى العامة. وكانت مطابخ السلطان الخاصة موجودة خارج القصر، وكان يعمل بها دائما خمسون خادما. ويصل القصر بالمطابخ ممر تحت الأرض. وهناك خبر طريف آخر وهو : أن أربعة عشر جملا كانت تحمل الجليد كل يوم من لبنان إلى مخازن الأطعمة فى قصر الخليفة. وكان لكبار الضباط والأعيان نصيب معين من هذا الجليد. وكان بعضه يعطي إلى أهل المدينة عند الطلب لعلاج المرضى.

إن هؤلاء الحكام، الذين كان لهم ولع شديد بالاستعراضات ومظاهر الأبهة ، لم يعد أحد يذكرهم برغبتهم المحمومة في أن يسودوا العالم. ولكنهم كانوا بناة حضارة رفيعة . ونظرا لحبهم للبذخ في شتى مظاهره- في المباني التي خلفوها لنا، والأعمال الفنية التي أحاطوا بها أنفسهم ، والأقمشة الفخمة لملابسهم ورياش قصورهم ، أظهر خلفاء مصر أنهم قوم ذوو طباع رقيقة وعقول نبيلة خلاقة.

كان للقاهرة في أول أمرها سور من اللبن. وقد ظل الأمر كذلك حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، حين أقام الوزير بدر الجمالى مكان السور الهزيل أسوارا قوية متينة من الحجر. وتقوم هذه الأسوار دليلا على استخدام فن معمارى متقن يختلف تماما عن فن بناء المساجد السابقة. والأبواب الضخمة الثلاثة التي بقيت حتى اليوم، باب زويلة في الجنوب وباب النصر وباب الفتوح في الشمال، قام ببنائها - أن نحن صدقنا ما يقوله الكُتاب العرب- إخوة ثلاثة جاؤوا من شمال العراق. وهي تشبه البوابات الرومانية، وخاصة منها باب النصر، بمربعاتها الظاهرة من الحجر الرائع ، وبنائها، وحلية أسفل الافريز فيها . وكان يحد الأسوار من ناحية الغرب طريق مزدوج لدورة الحراس؛ أما الداخل ، فكان مسقوفا ومزودا بفتحات جانبية واسعة ليقوم الحراس بالمراقبة ورمى السهام منها. وفي هذه الأسوار هناك عقود نصف دائرية ومعقودة ومصلبة وأقبية ذات دعائم . وأما الفتحات التي في أعلاها، فهي تنتهي بقطعة حجرية منحوتة نحتا جميلا على شكل مخروط ناقص. وفي الطابق الأول الذي يعلو قسمى الباب، توجد غرفة لرماة السهام مزودة بفتحات.

ولقد أعجب كثيرا رحالة القرون الماضية بهذه الأعمال العظيمة . وقد وصف أحدهم باب الفتوح بقوله أنه :

> لم يسبق له أن رأى شيئا بهذا الجمال وبهذا القدم وبهذا الكمال. ويزين الباب أساسا برجان، ليسا تامى الاستدارة ، وإنما هما أقرب إلى الشكل البيضاوى. وقد بلغ اتقان الصناعة فيهما إلى درجة أنهما يبدوان وكأنهما مصنوعان من قطعة واحدة من الحجر.

ولكن أصوات هذه الأسوار ظلت صامتة ، فلم يعلن أحد قط ممن وقفوا يراقبون خلف الفتحات اقتراب العدو. ولم تستخدم قط بواباتها الانزلاقية ، ولاصب الزيت المغلى والرصاص المصهور على رؤوس المهاجمين. ولا أرهبت الأسوار الفقراء الذين بنوا أكواخهم منذ زمن مبكر على جانب الأسوار.

ولم يبق من المدينة الفاطمية بأسرها سوى بقايا الطريق الرئيسى الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وعدد من الأزقة، ومعالم رائعة مثل الجامع الأزهر والمسجد الاقمر ومسجد الخليفة الحاكم.

ويعتبر الجامع الأزهر أروع أمجاد الدولة الفاطمية، وقد ظل «إلى زمن قريب» فى شبه عزلة عن العالم، موليا ظهره نحو حقائق الحياة اليومية . وهو أشبه بخلية نحل من العمل والورع معا . وحيث أنه قد تم توسيع البناء بمرور الزمن. فقد أصبح بمثابة متحف للعمارة والزخرفة الاسلامية. وهو يضم عددا ضخما من العقود والأعمدة من شتى الأساليب المتباينة . وما كان باستطاعة مؤسسه أن يتوقع الاضافات الضخمة التى أفسدت الخطة الأصلية المعدة له وأخلّت بوحدة الأسلوب . ولهذا أصبح البناء معقدا . ويجب أخذه على هذا الأساس . وقد قدر له أن يكون مدرسة دينية ومعهدا عظيما . وهو نتيجة لجهود مجتمعة لعدد من الأجيال من الأمراء الذين سعوا إلى توسيعه واثرائه معا .

والجامع الأزهر ، فى الأصل، من نوع المسجد التقليدى ذى الأروقة . وأهم تعديل أدخل على البناء مستورد من شمال أفريقية، وهو زيادة عرض الصحن الرئيسى للمسجد ، بحيث أصبح أشبه بطريق لاحتفال رسمى. وقد اعتقد بعض الدارسين أن هذا الطراز مشتق من خطة المعبد لشعب بدوى ؛ ولكن هناك تفسيرا أفضل . ذلك أن التصميم يتفق وعقيدة بسيطة وعبادة خالية من التعقيد. وتواجهنا هذه النقطة بصورة أوضح فى مصر، حيث كانت المعابد القديمة فيما مضى تشتمل على قدس الأقداس فى مكان معتم غامض، لايسمح لأحد ، إلا للملوك والخاصة من رجال الدين، أن يدخلوه وأن يتأملوا فى جلال الإله فيه . وأن بعض العقود التى تتكون فى الغابات الغربية الرائعة تذكرنا بالأفنية الهائلة فى الكاتدرائية ؛ وبالطريقة نفسها ، نلحظ رابطة شبه بين الانطباع العام لمسجد ملئ بالأعمدة وغوطة من النخيل، التى أحيانا ما تكون متسقة التنظيم إلى حد بعيد . ومثل المسجد ، فأن غوطة النخيل «غابة خالية من الغموض ، كما أن صرامة سيقان النخيل الجامدة تنتشر فى الرحب، دون أن تخفى معالمه» . وهناك وجه آخر يطالعنا للمقارنة بين الكنيسة والمسجد. فالكنيسة تصعد للسماء ببنائها وأبراجها وأبراج أجراسها. ولقد رأى ميشليه أن الدعامات الطائرة أشبه بعصى تساعد الكنيسة في صعودها . والمسجد ينتشر ثابتا على الأرض، مثل رمز للسكينة والايمان والشجاعة المطمئنة ، ويعوزه ذلك المشهد من الخضوع والأمل الذى تمثله الكنيسة.

وأقام الفاطميون أيضا مسجدا جديدا، بمثابة تحية وتذكار ، فوق القبور الحقيقية أو المزعومة لكبار العلويين الذين يستحقون تكريما خاصا. وقد آثروا اظهار اجلالهم للعقيدة التى ضحى لها شهداء العلويين. وهكذا انتشر تقديس الأولياء بسرعة فائقة . ولم يقتصر الأمر على أئمة أهل الورع من عصور الاسلام الذهبية ، بل شمل أيضا انبياء العهد القديم. ولدينا من العصر التالى مباشرة كتب لارشاد الحجاج تحتوى على قوائم دقيقة بأسماء الأولياء الصالحين. وأحضر إلى القاهرة رأس الحسين بن على ، شهيد كربلاء. وكذلك رأس زين العابدين . ويورد ابن جبير[١] سجلا بالأضرحة التى كانت تزار فى زمانه . وبالرغم من ازدهار المذهب السنى، فقد ظلت الأضرحة الشيعية هدفا للتقديس الشعبى. وهكذا ، فمدينة القاهرة مدينة بأكثر أوليائها لحكومة شيعية.

ورغم أننا نعجب بحضارة الفاطميين، فلاينبغى أن تخدعنا المبانى والأعمال الفنية التى لقيت منهم رعاية مؤكدة . وأنه للزام علينا أن نقوم بدراسة للحياة الأدبية والعلمية، وأن نقدم وصفا حضاريا مركزا للعالم الإسلامي. ففى الشق الشرقى من الدولة الاسلامية، فى ظل الدولة السامانية ، ازدهرت حلقة من الكتاب ، منهم الرودكى والبلعمى المؤرخ، الذين يضفون بريقا على اللغة الفارسية لأول مرة. وبسطت دولة بنى حمدان بحلب حمايتها على الفارابى الفيلسوف والمتنبى الشاعر ومنافسه أبى فراس . وفى فارس ، كتب الهمذانى والحريرى مقاماتهما الشهيرة، وهى أقاصيص مليئة بالنوادر الشعبية الطريفة . بينما ارتفع فى سورية صوت الشاعر الضرير أبى العلاء المعرى بالتشاؤم واليأس . ولاينبغى أن ننسى أنه ساد فى القرن الحادى عشر عمالقة الأدب من أمثال الفردوسى ، مبدع الملحمة الفارسية، وابن سينا ، والبيرونى وهم أكبر علماء عصرهم. ولقد اختفت الدولة الفاطمية فى سنة ١١٧١م دون أن تقدم مساهمة ذات قيمة فى مجالى الأدب والعلم. فلم تنتج منافسا للغزالى وعمر الخيام فى الشرق، أو لابن زهر وابن رشد فى المغرب والأندلس فى الغرب .

وفى القرون السابقة، كان خيرة علماء اللغة العربية فى العراق قد استطاعوا أن يجمعوا تراث حكمة الأقدمين عن طريق ترجمة كتبهم المناسبة . وفى الوقت الذى استولى فيه الفاطميون على حكم مصر، كانت الجهود الكبرى للمترجمين قد انتهت، واكتمل قاموس

١- رحلة ابن جبير : ٢١ - ٢٥ (ط. بيروت) .

المصطلحات العلمية. ولهذا ، اتجه اهتمامهم إلى أن يجعلوا من عاصمة مصر، التى أصبحت منافسا سياسيا لبغداد وقرطبة ، مركزا حضاريا يفوق فى ظنهم العواصم السابقة. ولننظر الآن كيف نفذوا خطتهم.

فابن كلس- وهو يهودى اعتنق الاسلام وأظهر تفاخره به- أسس حلقة للدراسات الدينية العليا في الجامع الأزهر سنة ٩٨٨م. وما لبث أن عُين للتدريس فيه خمسة وثلاثون أستاذاً للشريعة.

واتخذ الأزهر من معاهد العراق مثالا يحتذيه ، ماعدا فى العقيدة التى ظلت شيعية ؛ وأصبح جامعة تدرس فيها، بالإضافة إلى العلوم الإسلامية المحضة، الدراسات المتوارثة عن العالم القديم مثل الرياضيات والفلك والمساحة والعلوم الطبيعية والأحياء والطب والنحو والشعر والفنون وفروع الفلسفة المختلفة.

وأصبح البحث العلمي ممكنا بفضل مكتبة أقامها الخلفاء في القصر الكبير . وكانت هذه المكتبة تتكون من أربعين غرفة مشتملة على عدد هائل من الكتب فى شتى فروع المعرفة . وكانت أكبر مكتبة فى العالم الاسلامى، ويمكن اعتبارها احدى عجائب الدنيا. واشتملت المكتبة على عدد كبير من الخزائن ، صفت حول كل غرفة ، ويفصل بينها حواجز ، وفى كل منها باب متين يقفل باقفال ومزالق . وكانت تضم مائة ألف جزء مجلد أو مخيط فى الشريعة حسب المذاهب المختلفة، ومجموعات فى الحديث ، ودراسات فى النحو والفلك والكيمياء؛ بالإضافة إلى الحوليات ، وسير عدد كبير من الأمراء. وكانت هناك عدة نسخ من كل كتاب . وكانت ملصقة بباب كل خزانة ورقة مسجل عليها أسماء المخطوطات الموجودة بداخلها .

وحفظت نسخ من القرآن فى غرفة خاصة، وكانت تنسخ باليد بواسطة النُسَّاخ المشهورين . وكانت المجموعة تتكون من ٢٤٠٠ نسخة فى غاية الجمال، محلاة بالذهب والفضة وزخارف أخرى.

وقد اختفت هذه المجموعة الثمينة بطريقة تبعث على الأسى . إذ بيعت المخطوطات الجميلة حتى يمكن دفع رواتب الجند، وما تبقى بعد ذلك من كتب عند سقوط الدولة بيع بالمزاد العلنى وتبعثر.

إلى جانب هذا العمل العلمى المحض ، عقد الفاطميون حلقة للدراسات الدينية فى إحدى حجرات القصر. فكان المذهب الشعيى هو موضوع الدرس، كما نعتقد أن حضور هذه الدراسات كان اجباريا لجماعات معينة من الأفراد . وكذلك عقدت حلقات خاصة للنساء.

ويورد لنا مؤرخ عربى[1] معلومات تفصيلية فى هذا المجال إذ يقول :

وفى يوم السبت هذا- يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة (الموافق ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٠٠٥)، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة. وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور. ودخل الناس إليها . ونسخ كل من التمس نسخ شئ مما فيها ما التمسه ؛ وكذلك من رأى قراءة شئ مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها . وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ... وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم. وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وفى سنة ثلاث وأربعمائة (الموافقة ١٠١٣ ميلادية) ، أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء ، وجماعة من الأطباء ، إلى حضرة الحاكم بأمر الله. وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه. ثم خلع على الجميع ووصلهم .

وكما سبق أن رأينا لم يظهر بين الشعراء أو الكتاب شخصية كبرى ذات مكانة عالية . ولاينبغى أن ننخدع بـ «الأدباء والعلماء والشعراء العديدين الذين كان يرعاهم الخليفة» ، ممن يتحدث عنهم ناصر خسرو.

وقد لقيت العلوم رعاية خاصة ، لأن كثيرا من العلماء الممتازين يمثلون مصر فى تلك النهضة العلمية التى شارك فيها - فى منافسة حادة - جميع عواصم العالم الاسلامى.

فابن يونس واحد من أعظم الفلكيين الذين كتبوا باللغة العربية. وكان المرصد الواقع على التل المشرف على مدينة القاهرة هو المكان الذى قام فيه بأبحاثه ، التى سجل نتائجها فى «الجداول الحاكمية» ، وقد أهداها للخليفة الحاكم، وهو أول من اكتشف نظرية فى حساب المثلثات الكروية، كانت ذات نفع كبير للفلكيين قبل اكتشاف علم اللوجاريثمات . ذلك أن

١- الخطط ١ : ٤٥٨ .

نظريته تستخدم الجمع بدلا من عملية الضرب المعقدة لوظائف حساب المثلثات التى تحسب بكسر الستين. وأظهر مقدرة بالغة فى حل عدد من المشكلات فى الفلك الكونى باستخدام البروز القائم الزوايا الواقع عند الأفق من القبة السماوية وعند خطوط الطول .

وكذلك ابن الهيثم ، الذى عرف فى أوروبة فى العصور الوسطى باسم Alhazen ، والذى عاش فى الفترة ذاتها ، كان عالما من الطبقة الأولى فى تاريخ العلم. ولايعدل وفرة انتاجه سوى تعدد مجالات معرفته : فقد كتب فى الموازين ، وتكوين العالم ، وبعد المجرة ، وقوس قزح ، وتحديد القبلة، وألف فى الموسيقى، والمرايا المحدبة والمقعرة ، وضوء الشمس، والمربعات السحرية . وكان قد استقدم من العراق إلى مصر لحل مشكلة عملية، ولكنه اخفق فى حلها ، وهى تتعلق باستخدام مياه النيل لأغراض الرى دون التأثر بمنسوب الماء. وفى الواقع ، كان من الضرورى ، من أجل تحقيق ذلك. أن يقوم بالتطبيق العملى للعلم فى مصر ، وأن يقوم بدراسات حول الآلات الرافعة . ولكن أكثر أعمال ابن الهيثم أصالة هى «رسالة فى البصريات»، التى ملأت بظهورها ثغرة فى العلم عند العرب. وكانت هناك ترجمة لكتاب اقليدس عن البصريات ، الذى قام بشرحه الفيلسوف الكندى. وما من شك أنه كان لرسالة ابن الهيثم فى «البصريات» تأثير حاسم على علماء الطبيعة من الأوروبيين. ففى هذا الكتاب نجد لأول مرة وصفا لآلة التصوير Camera obscura.

أما عمار بن على ، فهو أكثر أطباء العيون أصالة بين العرب، وقد استقر فى مصر بعد أن تنقل طويلا فى المشرق . وقد أهدى إلى الحاكم كتابه فى أمراض العيون. ورغم أنه لم يخترع طريقة الازالة فى عمليات ماء العين cataract، إلا أنه وصل بطريقة الامتصاص حد الكمال، وقد استخدم فيها ابرة مجوفة . ولكن هذه الطريقة اعتبرت خطرة وضعيفة المفعول.

وقد خلف لنا ابن رضوان - طبيب الخليفة الحاكم- كتابا غريبا عن علم المناخ . وهو معروف بصفة خاصة بسبب اختلافه مع زميله المسيحى ابن بطلان من شمال سورية [١]. ويدور الخلاف بينهما حول درجة حرارة الفرخ والفروج وأيهما أحر. ولكن الجدل ازداد جدية حين بدأ العالمان فى استخدام التهكم ، بدافع الاعتزاز بمكانتهما - كما يحدث غالبا فى مثل هذه الحالات. فأكد ابن بطلان ضرورة تلقى العلم على أستاذ فى إعداد الأطباء ، فى حين رأى ابن رضوان العصامى أنه يمكن اكتساب المعرفة اللازمة كلها من الكتب . وقد حافظ كل منهما على فكرة التقدم العلمى التى حدد معالمها فى القرن السابق الفيلسوف والطبيب الرازى . وأن

هذين العالمين اللذين يمثلان الاتجاه للأخذ بالمناقشات الحرة فى العالِم العربى يستحقان منا كل تشريف ؛ إذ سرعان ما قيدت المدرسة- وهى المدرسة الدينية والوحيدة- الفكر الاسلامى بمستوى أقل من ذلك بكثير . تلك كانت فى الشرق الأدنى آخر طفرة فى الدراسات الفلسفية والعلمية بصفة أخص، وفى رصد الظواهر الطبيعية والحركات الأرضية ، تحت تأثير الفكر الشيعى.

* * *

اضرت سنوات القحط السبع من حكم المستنصر بالفسطاط أكثر من القاهرة . ففقدت المدينة الأولى سكانها ، وسرعان ما أصاب الخراب بيوتها . وما من شك أن القاهرة قد أصيبت أيضا وهجر بعض أحيائها . وأصبحت الفسطاط خرابا مهجورا تتداعى وراء جدرانها . وكم من رجل مات بغير وريث . ولذلك أمر الوزير بدر الجمالى ، ذو السطوة والسلطان حينذاك ، بأن يقوم القادرون بالبناء فى القاهرة أو فى جنوبها مباشرة . والزم هؤلاء بأن يستخدموا حجارة ومواد أخذت من بقايا الفسطاط . وقد نفذت هذه النصيحة أو بالأحرى هذا الأمر، واستخدم كثيرون تلك المواد لبناء بيوتهم فى القاهرة .

وبعد ذلك ، فى عهد الخليفة الآمر بالله، أقيمت مبان كثيرة بين القاهرة والفسطاط . فكان موظفو الحكومة يعودون إلى منازلهم من العمل فى القاهرة إلى مصر القديمة خلال شوارع مكتظة تضيئها المصابيح . وقد جدد الوزير المأمون الأمر بمنع الملاك فى هذه المنطقة من البناء ، أو بيع أراضيهم لأفراد يلزمون بالبناء ، إلا إذا استخدموا هذه المواد المتخلفة من المبانى القديمة. وكانت الدولة، فى حالة عصيان الأمر، تصادر الأرض من ملاكها . وقد أدى ذلك إلى بعث نوع من الرخاء فى المنطقة الواقعة بين باب زويلة وضريح السيدة نفيسة.

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أدت إعادة تكوين فرق الجيش التى قام بها بدر الجمالى إلى أزمة فى الاسكان . ولم تكن اقامة الوحدات الجديدة داخل حدود المدينة ذاتها ، فبنيت لهم منازل خارج الأسوار تجاه الجنوب، وأقيمت لهم أسواق تفى بحاجاتهم اليومية. ووجد فى هذه

١- خمس رسائل لابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصرى (جامعة القاهرة ، ١٩٣٧) : الرسالة الأولى فى أن الفرخ احر من الفروج ، ونقدها : ٣٤ وما بعدها ؛ الرسالة الثانية فى أن المتعلم من أفواه الرجال أفضل وأسهل من المتعلم من الصحف إذا ما كان قبولهما واحدا، وهى لابن بطلان : ٥٠ وما بعدها .

الأسواق تجار الأقمشة والعقاقير والقصابون . وكان ذلك شيئا جديدا ، لأن ناصر خسرو كتب قبل ذلك بعدة سنين[١] «بين القاهرة والفسطاط تغطى المياه الوادي بأجمعه ...، عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع». وكانت بركة الفيل لاتزال موجودة شرقى الترعة التى كانت تصب فيها عند فيضان النيل.

وأصبحت هذه المنطقة بأسرها عندئذ حيا واحدا كبيرا انتشروا وراء حدود المدينتين . ويقول ابن رضوان[٢]:

والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء: الفسطاط والقاهرة والجزيرة (الروضة) والجيزة... والجبل المقطم فى شرقيها وبينها وبين مقابر المدينة ... وأعظم أجزائها هو الفسطاط، ويلى الفسطاط من الغرب النيل . وعلى شط النيل الغربى أشجار طوال وقصار... وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية.

وينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا جغرافية المكان عند وصف الفسطاط والقاهرة، التى كان قد تم تشييدها حين كتب ابن حوقل ما يأتى[٣]:

والفسطاط مدينة حسنة، ينقسم النيل لديها قسمين ، فيُعْدى من الفسطاط إلى عُدْوة أولى، فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة (وكانت تسمى الروضة) ، ويعبر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة . ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثانى كالجسر الأول إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها فرسخ، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب فى محالها وأسواق ومتاجر فخام وممالك جسام، إلى ظاهر أنيق وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة.

وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب إليها محالهم كالكوفة والبصرة، إلا أنها أقل من ذلك فى وقتنا هذا وقد باد أكثرها بظاهر المعافر ، وهى سبخة الأرض غير نقية التربة . والدار تكون بها طبقات سبع وست وخمس طبقات، وربما سكن فى الدار المائتان من الناس ... ومعظمهم بنيانهم من الطوب وأكثر سفل دورهم غير مسكون ...

١- سفر نامه : ٥١ .

٢- راجع نص ابن رضوان فى الخطط ١ : ٣٣٩ .

٣- صورة الأرض لابن حوقل : ١٢٧ (ط. بيروت) .

وكان خارج مصر (الفسطاط) ابنية بناها أحمد ابن طولون مساحتها ميل في مثله، يسكنها جنده تعرف بالقطائع ... وقد خربت في وقتنا هذا.

وقد استحدث المغاربة بظاهر مصر مدينة سمتها القاهرة. استحدثها جوهر صاحب أهل المغرب عند دخوله إلى مصر لجيشه وشمله وحاشيته . وقد ضمت من المحال والأسواق وحوت من أسباب القنية والارتفاق بالحمامات والفنادق إلى قصور مشيدة ونعم عتيدة . وقد أحدق بها سور منيع رفيع يزيد على ثلاثة أضعاف ما بنى بها، وهي خالية كأنها تركت مجالا للسائمة عند حصول خوف . وبها ديوان مصر ومسجد جامع حسن نظيف غزير القوام والمؤذنين.

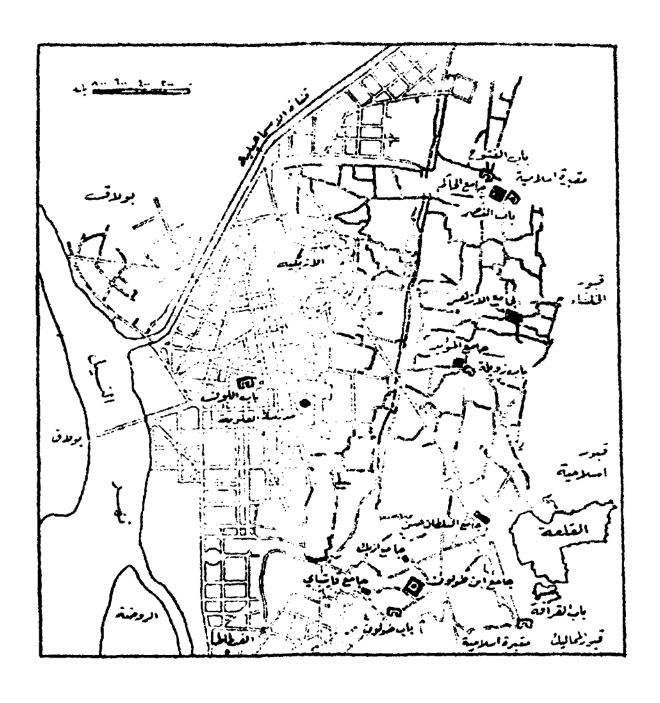
أما عند المقدسي[1] ، في نهاية القرن العاشر الميلادي، فالفسطاط هو مصر، قد اتسع بقعته، وكثر ناسه ، وتنضر إقليمه ، واشتهر اسمه وجل قدره ، فهو مصر مصر وناسخ بغداد .. حسن الأسواق والمعايش إلى حماماته المنتهى ... آهل من نيسابور، وأجل من البصرة ، وأكبر من دمشق. به أطعمة لطيفة ، وادامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة. والفسطاط مدينة على النيل ممتدة ، ويقطع إليه مراكب الجزيرة والروم، تجارته عجيبة ومعايشه مفيدة وأمواله كثيرة ... قامت به مناظر اللهو والتسلية .

وللطبيب ابن رضوان[2] نقد لاذع فيما يتعلق بالحالة الصحية في المدينة، منه قوله :

ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأزقتهم، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء. ومن شأنهم أيضا أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول صواناتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه. وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء. وفي خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط. وهي أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى إنك ترى الهواء في أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس، ويتسخ الثوب النظيف في اليوم الواحد . وإذا مر الإنسان في حاجة لم يرجع إلا وقد اجتمع في وجهه ولحيته غبار كثير . ويعلوها في العشيات خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر، سيما إذا كان الهواء سليما من الرياح ... إلا أن ألف أهل الفسطاط لهذه الحال، وأنسهم بها يعوق عنهم أكثر شرها .

١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي: ١٩٧ (ط. ليدن) .

٢- راجع نص ابن رضوان في الخطط ١ : ٣٣٩-٣٤٠ .



القاهرة : الشوارع والأبنية الرئيسية

ولعل من الحكمة أن نوازن بين هذه الملاحظة الفنية المضطربة وبين هذه النظرة الحماسية للرحالة الفارسي المعاصر ناصر خسرو الذى سبق لنا أن درسنا أقواله [١]:

وتبدو مصر كأنها جبل، حين ينظر إليها من بعيد. وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات... وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دورا كثيرة فيها حجرات للاستغلال أى للإيجار . وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما. لأن الضوء لايصل إليها.

... وعلى الجانب الشمالى (لمسجد عمرو بن العاص) سوق يسمى سوق القناديل لايعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف . ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الصدف كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ... ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ... كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا، له نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس .

ويصنعون بمصر الخزف من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل . وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها . ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء ويبيعونها بالوزن .

ومدينة مصر ممتدة على شاطئ النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة. إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال من النيل . أما ماء المدينة فيحضره السقاؤون من النيل أيضا . يحمله بعضهم على الابل وبعضهم على كتفه ... وتفرغ السلع من القوارب عند أبواب البقالين . وبسبب الازدحام فى الشوارع، يستحيل على دواب الحمل أن تنقل هذه البضائع .

وأمام مصر جزيرة ، وسط النيل، كان عليها مدينة فى وقت ما ، والجزيرة غربى المدينة... وهى صخرة وسط النهر ، تقسمه قسمين، كل منهما فى اتساع جيحون ، ولكن أكثر هدوءا وبطئا فى جريانه. وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة. ويقع جزء من مدينة

١- سفر نامة: ٥٨ .

مصر على جانب النيل الاخر، ويسمونه الجيزة . ولكن ليس بها جسر ، ولذا يعبر الناس بالزوارق أو المعابر.

وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ... ويعطى التجار فى مصر ، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من رجاج أو خزف أو ورق، حتى لايحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء.

... ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق . وفى كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة عليها براذع مزينة، يركبها من يريد نظير أجر زهيد . وقيل أنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى. ولايركب الخيل إلا الجند والعسكر ؛ فلايركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف، ويركبها العلماء.

... ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس، فإنى لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها .

وأخيرا، يدل كتاب الادريسى الجغرافي [١]- الذى كتب فى منتصف القرن التالى- أن تأسيس القاهرة لم يؤثر فى ازدهار الفسطاط ؛ بل لعل العكس هو الصحيح:

وهى الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن؛ فسيحة الطرقات، متقنة البناءات، قائمة الأسواق ، نافقة التجارات، متصلة العمارات، نامية الزراعات . لأهلها همم سامية، ونفوس تقية عالية، وأموال مبسوطة نامية، وأمتعة رائقة . لاتشغل نفوسهم بهمّ، ولاتعقد قلوبهم على غم، لكثرة أمنهم، ورفاهة عيشهم ، وانبساط العدل والحماية فيهم... ومصر بالجملة عامرة بالناس ، نافعة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس . وفى أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة.

ولكن أصاب المدينة خراب شديد لبعض الوقت على يدى الوزير الفاطمى شاور فى سنة ١١٦٨ ، حين حاصرتها جيوش الفرنجة . فأراد أن يجمع قواته للدفاع عن القاهرة [٢]:

١- المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس للادريسى: ١٤٢-١٤٣ (ط. ليدن) .

٢- الخطط ١ : ٣٣٨-٣٣٩ .

فنادى شاور بمصر أن لايقيم بها أحد، وأزعج الناس فى النقلة منها. فتركوا أموالهم وأثقالهم، ونجوا بأنفسهم وأولادهم. وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر .. لايعبأ والد بولده ، ولايلتفت أخ إلى أخيه ، وبلغ كراء الدابة من مصر إلى القاهرة بضعة عشر دينارا، وكراء الجمل إلى ثلاثين دينارا. ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات . فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم، وقد سلبوا سائر أموالهم ، وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف ... وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، فرق ذلك فيها، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء، فصار منظرا مهولا . فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر ... لتمام أربعة وخمسين يوما، والنهّابة من العبيد ورجال الأسطول وغيرهم بهذه المنازل فى طلب الخبايا... فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن كيمان مصر.

(٣)

صلاح الدين

أخذ صلاح الدين يبحث عن مكان حصين لاقامته بعد أن قضى على دولة الفاطميين. ويقال أن السبب الذى دعاه إلى اختيار مكان القلعة، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة، فعلق لحم حيوان آخر في موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين. ولذلك أمر ببناء قلعة على بروز فى جبل المقطم ، يكوّن ما يشبه شبه الجزيرة . ودمرت المساجد والقبور الموجودة فى المنطقة، كما هدمت الأهرام الصغيرة فى الجيزة، ونعرف أنها كانت كثيرة العدد. ونقل ما تخلف عنها من حجارة ، واستخدم فى بناء قلعة القاهرة . وكان السلطان يهدف إلى بناء سور واحد يضم القاهرة والفسطاط والقلعة، ولكنه توفى قبل اتمام السور والقلعة . وابتدأ العمل فى بناء القلعة سنة ١١٧٦م (٥٧٢هـ) ، وانتهى في سنة ١٢٠٧م (٦١٤هـ) : أما السور ، فلم يتم أبدا . وقد خلص المقريزى إلى الاعتقاد بأن السبب في بنائها أن صلاح الدين لما أزال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالأمر، لم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، الذين كان يساندهم النصارى، فأحب أن يجعل لنفسه معقلا كما فعل أصحاب العسكر والقطائع بالقاهرة، وأنه أراد أن يترك مساكن من حكموا قبله ليؤسس الدولة الجديدة فى موقع يليق بها بعيدا عن أحياء السكنى. وهذا شأن الملوك ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم. فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون. وكذلك كانوا أيام العجم فى جاهلية العرب، وهم على ذلك فى أيام الاسلام[١].

وبذلك يكون صلاح الدين قد غير فى شخصية المدينة الفاطمية، التى كانت كحصن ، فجعلها مكانا يستطيع العامة وسائر السكان أن يبنوا بيوتهم فيه. وقلل من حجم قصر الخليفة، فهدم منه جزءا ، وحول جزءا آخر إلى مساكن خاصة.

وما زالت القلعة شاهدا على عظمة عصر صلاح الدين، رغم أن السلطان لم يسكنها أبدا. وهى تقدم دليلا ملموسا على شخصية فذة، ورجل سابق لزمانه وأرقى من معاصريه ، سواء فى ذلك إخوانه فى الدين أو أعداؤه ، الذين رأوا فيه انسانا يغلب عليه الاعتدال وشعور الولاء، مبرأ تماما من الأنانية والدوافع الشخصية- وبعبارة مختصرة - رجلا فذا.

١- معنى الفقرة فى الخطط ٢ : ٢٠٣ ، ١ : ٣٤٨ .

وحين بنيت القلعة فى القاهرة، وقفت كتحد بلا فائدة أمام السكان المسالمين ، الذين لم يشقوا عصا الطاعة فى العاصمة؛ أما فى الريف ، فقد وقعت بعض الاضطرابات حينما تعسفت معهم سلطات الضرائب.

وعلى أي حال ، فإن بناء القلعة يعتبر بمثابة وضع حد للماضى، بل فاصل حاد، لأنها مثلت احتمال تغير فى العادات وقلب للبناء الاجتماعى. فبحكم موقعها الظاهر فقط، كانت القلعة تصدم الشعور العام على نحو مثير للنفس . فظلت مراكز الحكومة محجوبة وراء الأسوار ، محمية ضد الثورات الممكنة . وكان مبعث الخوف فى أول الأمر شعب يرفض الخضوع ؛ ولكن بعد تكوين جيوش من المرتزقة ، ظهرت الرغبة فى منعهم من الاختلاط الشديد مع الأهالى. وسوف نرى أخيرا أنه فى عصر سلاطيم المماليك، أصبحت هناك حاجة إلى حماية الفريق الحاكم ضد المنشقين العديدين فى أى وقت. وما أن بنيت القلعة، حتى أخذت مدينة القاهرة فى التوسع عن طريق هدم جزء من أسوار الفاطميين، أو كما حدث فى المنطقة الشمالية ، عن طريق بناء بيوت جديدة عليها.

كانت مدينة ابن طولون مسكنا للأمير؛ ويمكن اطلاق هذا التعبير ذاته على قاهرة الفاطميين . ولم يصبح لمصر عاصمة حقيقية إلا بوصول صلاح الدين. فمجد القاهرة - دون التقليل من عمل الفاطميين- يبدأ من عصر الأيوبيين . فالرحالة الأندلسى ابن جبير يعرف المدن ، ويعرف أن بعضها لايستحق اسم المدينة. وقد صرح بذلك عند الحديث عن بلدة فى شمال العراق بهذه العبارة [١]: «وأما المدينة، فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لاسور يحصنها ، ولادور أنيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت فى صحرائها كأنها عوذة لبطحائها ».

ولذلك لم يخل قوله من شئ من الاعتزاز عندما وصف موقع بناء القلعة فى ذروة نشاطها سنة ١١٨٣م (٥٧٨هـ) بهذه الكلمات [٢]:

وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتسين مصر والقاهرة. والمسخرون فى هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة ، كنشر الرخام، ونحت الصخور العظام،

١- رحلة ابن جبير : ٢١٩ (ط. بيروت) .

٢- المصدر نفسه : ٢٥ (ط. بيروت)، و ٥١ (ط. أوروبة) .

وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر، عجبا من العجائب الباقية الآثار ، العلوج الأسارى من الروم، وعددهم لايحصى كثرة ، ولاسبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم .

وأبدى الطبيب عبد اللطيف البغدادى عجبه من مساكن الطبقة الوسطى فى المدينة ، وأورد لنا بعض المعلومات القيمة بشأنها والتى يمكن أن تفسر ظاهرة أن الغرف الموجودة فى طابق واحد لم تكن فى مستوى واحد أبدا[١]:

وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية، استحضر المهندس وفوض إليه العمل. فيعمد إلى العرصة، وهى تل تراب أو نحوه ، فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه، ثم يعمد إلى جزء جزء من تلك العرصة، فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراد ويسكن . ثم يعمد إلى جزء آخر، ولايزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك . وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى أنه قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة . ودورهم فسيح ، وغالب سكناهم فى الأعالى، ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة. وقلما تجد منزلا إلا وفيه باذاهنج وباذاهنجاتهم كبار واسعة ، للريح عليها تسلط ، ويحكمونها غاية الإحكام.

ومنذ العصر الأيوبى، اتبعت مدينة القاهرة قواعد محددة فيما يتعلق بنموها الناتج عن الزيادة فى عدد سكانها . فمن ناحية الجنوب ، نجد أن القاهرة تتجه نحو الاتصال بالفسطاط، التى أصبحت العاصمة الجديدة فى حاجة إليها كميناء على النيل. أما ما بين المدينتين، فستستمر الحدائق الجميلة حتى بداية القرن الرابع عشر . ومن ناحية الغرب ، تنمو المدينة نحو ضفاف النيل وتتعدى الخليج بحيث أن جزيرة بولاق تصبح الواجهة الجديدة على النهر وتنافس الفسطاط كميناء تجارى . وهكذا ، سوف لايضر نمو القاهرة بمدينة الفسطاط القديمة ، أو يسبب اضمحلالها ، وإنما سيغير وظيفتها .

وقد كتب ابن جبير فى ذلك الوقت يقول [٢]:

١- الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر لعبد اللطيف البغدادى : ٣٩ (ط. القاهرة)؛ وأنظر أيضا النص العربى والترجمة الانجليزية فى كتاب :

The Eastern Key, by Kamal Haffuth Zand, John A. and Ivy E. Videan, London, pp. 179 = 44 1 ff and 177 = 44 r ff.

٢- رحلة ابن جبير : ٣٩ (ط. بيروت) ، و٥٤ (ط. أوروبية) .

وبمدينة مصر (الفسطاط) آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين (الفاطميين) ، وذلك سنة أربع وستين وخمس مائة (١١٦٩م) . وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل . وهى مدينة كبيرة.

هذا هو ما ورد فى وصف رحالة أندلسى فى طريقه إلى الحج، وسوف نستمر الآن بايراد وصف ذكره رحالة أندلسى أيضا، هو ابن سعيد الذى يتميز وصفه بالحيوية والتعليقات اللاذعة . فأول ما تلحظه عينه هو قذارة المدينة القديمة فيقول[١]:

ولاينزل فيها مطر إلا فى النادر ، وترابها ينتن الأرجل ، وهو قبيح اللون، تستكدر منه أرجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها . ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة.

وأضاف ابن سعيد [٢]:

لما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط. فسار معى إليها أحد أصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة ، لاعهد لى بمثلها فى بلد، فركب منها حمارا ، وأشار إلى أن أركب حمارا آخر. فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب، فاخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت . وعندما استويت راكبا ، أشار المكارى إلى الحمار، فطار بى، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى، ودنس ثيابى، وعاينت ما كرهته . ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج...

فدفعت إلى المكارى أجرته، وقلت له : احسانك أن تتركنى أمشى على رجلى . ومشيت إلى أن بلغتها. وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين . ولما أقبلت على الفسطاط ادبرت عنى المسرة، وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة. ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع، وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة . وحول أبوابها من

١- راجع رحلة ابن سعيد فى نفح الطيب للمقرى ٣ : ١٠٢ وما بعدها (ط. القاهرة ، ١٩٤٩) .

٢- راجع الخطط ١ : ٣٦٦ ؛ وراجع أيضا رحلة ابن سعيد فى نفح الطيب ٣ : ١٠٣-١٠٦ .

التراب الأسود والازبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف . فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال، إلى أن صرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لاتفى به إلا مشاهدته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع اشبيلية وجامع مراكش ، ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء، غير مزخرف ، ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه، وتنبسط فيه. وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك، والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك. وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا ، وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع، وفى زواياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة. إلا أن مع ذلك ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لاتجده فى جامع اشبيلية ، مع زخرفته والبستان الذى في صحنه ؛ ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضى الله تعالي عنهم فى ساحته عند بنائه . واستحسنت ما أبصرته من حلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن . وسألت عن مواد أرزاقهم، فاخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجهد والتعب .

ثم انفصلنا من هناك إلى ساحة النيل، فرأيت ساحلا كدر التربة، غير نظيف ، ولامتسع الساحة، ولا مستقيم الاستطالة ، ولاعليه سور أبيض ؛ إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل. ولئن قلت أنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا ، والنيل هنالك ضيق ، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتداً من الفسطاط إلى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه، وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما فى حيز قلعة

السلطان ، ولايجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبا ، احتراما لموضع السلطان ...

ولم أر فى أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط ، حتى أنهم الطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين؛ والحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة ، واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك، لا بالقاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ؛ والخراب بالفسطاط كثير...

وفى أماكن أخرى ، امتدح ابن سعيد القاهرة مدحا معتدلا، فقال [١]:

وأما مدينة القاهرة ، فهى الحالية الباهرة ، التى تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا فى بنائها ، واتخذوها قطبا لخلافتهم ومركزا لأرجائها ، فنسى الفسطاط، وزهد فيه بعد الاغتباط ... هذه المدينة (القاهرة) اسمها أعظم منها، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ... لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ... وكان يجلس فيها خلفاؤهم . ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار...

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية . ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتمر فى ممر كدر خرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو فى موكب جليل. وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان فى موضع الطباخين ، والدخان فى وجه الوزير ، وعلى ثيابه . وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم. وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والأزبال، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها، ولم أر فى

١- نفح الطيب ٣ : ١٠٨-١١٤ ؛ والنص ليس متتابعا دائما .

جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى، وتدركنى وحشة عظيمة، حتى أخرج إلى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشا لبُعدها عن مجرى النيل، لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لايبرح كدرا مما تثيره الأرض من التراب الأسود ...

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا، وجوا مغبرا، فتنقبض نفسه، ويفر أنسه...

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدرا، وجوا مغبرا، فتنقبض نفسه، ويفر

وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب...

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها . وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة، لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط، لأنها أجل مدارس، وأضخم خانات ، وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر .

إلا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة (الروضية) التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة، عظمت عمارة الفسطاط، وانتقل إليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها، وبنى فيها السلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة، فنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك.

وفيها جوار طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين، ولهن فى الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة . ومطابخ السكر والمواضع التى يصنع بها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ... ويصنع فيها من الانطاع المستحسنة ما يسفر إلى الشام وغيرها ، وفيها صناع للقسى كثيرون متقدمون. ويسفر من القاهرة إلى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات وخرائط الجلد والسيور وما أشبه ذلك . وهى الآن عظيمة آهلة ، يجبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لايحيط بجملته وتفسيره إلا خالق الكل جل وعلا .

والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماع والفرج في ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه، يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة وما أشبه ذلك.. وسائر الفقراء لايتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر ...

وقد دخلت في الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان . وهو ضيق، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتي أن المحتشمين والرؤساء لايجيزون العبور به فى مركب . وللسرج فى جانبيه بالليل منظر، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل.

* * *

أدى رد الفعل السُّنى الذى قام به صلاح الدين إلى إيجاد معهد دينى جديد، وهو المدرسة . وليس هناك من نص يشعرنا بمدى هذا الاصلاح خيرا من واحد من أقدم النقوش الأيوبية فى القاهرة[1]:

بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام ... الزاهد نجم الدين ركن الاسلام، قدوة الأنام، مفتى الفرق ، أبو البركات ابن الموفق الخبوشانى ، أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى رضوان الله عليه، الموصوفين بالأصولية الموحدة الأشعرية على الحشوية وغيرهم من المبتدعة وذلك فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وخمس مائة.

وقد ألصقت بالعقائد الدينية للنظام السابق الفاطمى أقسى النعوت ، فاعتبرت بدعا ، وكل بدعة فى الإسلام ضلالة . ويظهر النقش أهمية واحد من أئمة المذاهب السنية الأربعة، وهو الإمام الشافعى الذى لازال مذهبه شائعا فى مصر . ولم يدخر صلاح الدين جهدا فى بناء ضريح للشافعى؛ وما زلنا اليوم نعجب بروعة الشاهد الخشبى الذى بناه. ويرى ابن جبير[2] فى ضريح الشافعى أنه «من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا . وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته».

1- Chronologique d' Epigraphie Arabet, Par E. Combe & J. Sauvaget & G. Wied. Repertoire Tome Neuviéme , N^O^3339 . Le Caire , Imprimerie de L'Insitut Françcais d'Archologie Orientale , 1937 .

٢- رحلة ابن جبير : ٢٢ (ط. بيروت) .

أما الأشعرى – آخر شخصية مذكورة فى النقش– فهو العالم العراقى الكبير الذى أسس مذهبا عقائديا فى الاسلام. وكانت المدرسة إحدى وسائل الحركة التى ابتدأها . وقد استخدم الأشعرى المنطق الأرسطى فى صياغة العقيدة فى الاسلام، ولكن يجب أن نتنبه إلى أن موقفه– كما هو الحال بالنسبة لموقف السنة فى الإسلام من بعده – يمكن إجماله فى هذه الكلمات : «الله ينبه عقل الإنسان ليدركه، ولكن العقل أداة للإدراك فقط لا للحكم على الله» [١]. واتبع أهل الورع الأشعرى، وعجلت أعماله باضمحلال الحياة الفكرية فى الإسلام. فإن تزمته الدينى لابد وأن يكبل الفكر، كما فرضت أفكاره كتعاليم لاتقبل المناقشة.

لعل قيام المدرسة الدينية كان أمرا ضروريا بالنسبة لمستقبل الإسلام، فى وقت تهددت عقيدته الانقسامات والهرطقة ، وتهددت ممتلكاته هجمات الصليبيين . وقد نتج عنها على أى حال ضعف سريع فى نوعية التعليم. وصلاح الدين هو الذى أدخل المدرسة إلى مصر؛ ونظرا لسيطرة الدولة على نظام التعليم فيها ، توقفت الانقسامات الدينية والفلسفية ، كما توقف تمجيد تراث القدماء الذى شجع عليه الفاطميون . واستطاعت البرامج الجديدة المستمدة من الفكر السنى أن تثبت السنة نهائيا . ولكن رجال هذه المدارس لم يكونوا فى ورع رجال صدر الإسلام الذين علموا الدين بدافع من التقوى وشرف العمل . فنحن نجد الآن موظفين يقدمون دروسا مألوفة لتلاميذ هم بدورهم (حريصون) على الحصول على الشهادة حتى يمكنهم أن يعملوا فى خدمة الدولة.

ويبدو أن البداية كانت مثيرة– حسب قول ابن جبير ، الذى كان من المتحمسين للمعاهد التى أسسها صلاح الدين [٢]– حيث أنه يقول :

... المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء يقوم به فى جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من

١– انظر : الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٠١–١٠٢ (ط. القاهرة ، ١٩٦١) ؛ وراجع تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور : ١١٨ (ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة) .

٢– رحلة ابن جبير : ١٥–١٦ (ط. بيروت) .

علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقوامًا برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم.

ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا من قبله . فقد انتهى في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة.

هذه هي الأوصاف الشيقة التي يوردها اثنان من الرحالة الاندلسيين وهما ابن جبير وابن سعيد؛ ويجب أن نضم إليهما الطبيب العراقي عبد اللطيف ، وهو عالم كبير عاش سنين طويلة في سورية ومصر. حيث اتصل بابن ميمون . ولدينا وصفه لمصر ، الذي يظهر فيه معرفة عميقة بالتاريخ الطبيعي . فقد أتيحت له الفرصة في القاهرة أن يفحص بعض الموميات المحنطة ، ويذكر ملاحظاته الشخصية بكل فخر قائلا[1]: «فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لانستفيده من الكتب ... والحس أقوى دليلا من السمع».

لاينبغي أن نعلق أهمية كبيرة على العلاقة بين الامبراطور فريدريك الثاني مع علماء الشرق، ولكنها إذا لم تؤد إلى تقدم المعرفة ، فإنها تقوم دليلا على توفر الرغبة على الاتصال، واعتراف الغرب بتفوق الشرق . فنحن نعرف أن فريدريك – مدفوعا بولعه بالفلسفة والرياضيات والفلك– كان قد سأل السلطان الملك الكامل أن يجيب على أسئلة شغلت الامبراطور. وقد وصلت إلينا عن هذا السبيل أسماء عدد من العلماء؛ ومما يبعث على العجب أن بعضهم كان من رجال الشريعة؛ ولكن ليس هنا ذكر إلا لعلمهم الوفير. ولعله يمكننا أن نستثنى منهم القرافي، الذى حل بعض مشكلات علم البصريات.

وننوه أخيرا بذكر الطبيب ابن النفيس الذى توفى فى القاهرة واشتهر بفضل دراسات حديثة على عمل لم يكتب له النجاح قام به على دورة التنفس . ولكن أطباء الشرق حينئذ لم تكن لديهم الكفاءة اللازمة التى تمكنهم من الاستفادة منه .

وأخيرا ، فقد حظيت القاهرة بوجود الشاعر ابن الفارض فيها، الذى أولع بالتغنى بالفناء في الله . ولقد كثر الكلام على نظرية الحلول عند ابن الفارض ، ولعلها «أقرب إلى أن تكون

١– الافادة والاعتبار : ٢٧٣–٢٧٥ : (٦٨) (ط. لندن).

نوعا من الشعور ، منها إلى منهاج فى التفكير» . وهو أول شاعر غنائى متصوف ، وقد ابتدع نوعا من الشعر ما لبث أن أصبح مثالا يحتذى . وترجع أصالته إلى كتابته شعرا غامضا ، فسر على أنه حب إلهى، بدلا من أن ينظر إليه على أنه غزل رمزى ، وقد زاد ذلك من انتشاره . وعلى أى حال، فإن شعره يعرض علينا أجمل ما كتب من القصائد الصوفية . ولغته صعبة ، ولعل ذلك راجع إلى كثرة تشبيهاته الرمزية، وجنوحه إلى نوع من التأنق فى الأسلوب، وإلى اساءته استخدام الأساليب الشعرية.

(٤)

سلاطين المماليك

الحالة العامة والحياة الاجتماعية

يمكننا أن نتخيل بسهولة مدى الدهشة التى تتملك رحالة العصور الوسطى من الأوروبيين حين يقفون على قمة جبل المقطم. فقد ذكروا أنه كان منظرا من أجمل مناظر الدنيا . وقد زاد من روعته عدد لايحصى من القباب والمآذن ، التى أضفت نوعا من التغيير الجميل على المدينة التى تتشابه سقوفها المسطحة.

وقد كتب واحد من هؤلاء الرحالة يقول:

إنى لأذكر مرة من المرات العديدة التى جلست فيها أكثر من ربع ساعة على الصخرة خارج باب الحصن . فإن مشاهدة القاهرة من مرتفع يعتبر من أمتع المناظر . ومصدر الامتاع هو كثرة المآذن البيضاء، كل منها يتكون من ثلاثة أدوار أو أربعة من الشرفات . وتبدو هذه المآذن وكأنها مضفرة بالخضرة الجميلة التى تتحلى بها أشجار النخيل الكثيرة التى تنمو فى حدائق المدينة. وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق والتباين الخلاب يسر الناظرين . ثم أن عظمة النهر الذى يتحول فى فصل الفيضان إلى بحيرة لايحيط بها الطرف، وعديد الجزر التى تبعث الحياة والحركة فى هذا السهل الفضى ، وروعة الجبال الشامخة التى تحد هذا المكان البهيج ، كل هذه تضفى على هذا المنظر جلالا وتنوعا لامثيل لهما.

وكان هناك ما يدعو إلى الاعجاب فعلا بهذه العاصمة الضخمة ، التى انتشرت فى شكل نصف قمر من ضريح الامام الشافعى إلى مقابر الخلفاء . وكانت المدينة فى العصور الوسطى تتكون من أربعة مراكز متباينة أشد التباين : القاهرة ، ونقصد بها المدينة الفاطمية ذاتها ، تحيط ببعض أجزائها الأسوار التى كانت تختفى يوما بعد يوم وراء المبانى المتسلقة التى كانت تقام عليها ؛ ثم مصر القديمة، فى موقع الفسطاط القديمة؛ ثم بولاق ، وكانت فيما سبق جزيرة ثم تحولت إلى جزء من القاهرة وميناء تجارى لها على النيل؛ وهناك أخيرا مدافن القرافة ، شمال القلعة وجنوبها . ويمكننا أن نضيف إلى هذه بعض الضواحى مثل باب اللوق، وباب زويلة ومسجد ابن طولون .

القاهرة ومصر القديمة كانتا فى الواقع شيئا واحدا ، إذ لم يكن هناك فاصل بينهما ، سوى بعض مناطق غير مزروعة ولامسكونة ومهجورة بصفة عامة. وفى بعض الأماكن ، كانت المسافة بين منازل القاهرة ومنازل مصر القديمة لاتتجاوز مرمى القوس ، وفى أماكن أخرى، زادت المسافة على ضعف هذا القدر. وبعض المناطق الواقعة بين منطقتى الاسكان الكبيرتين ، كانت تغطيها البساتين الفسيحة الغنية ومزارع الخضر وحدائق اللهو. وبينما كان بريدنباخ في طريقه من المطرية إلى القاهرة في سنة ١٤٨٣م، رأى عن يمينه عددا من الحدائق الجميلة جدا ، المزروعة بأشجار الفواكه ، قامت بينها قصور أشبه بالحصون . وامتدت الحدائق والبيوت فى خط متصل حتى القاهرة . وحين دخل المدينة بيير بيلون عن طريق بولاق، لاحظ عددا كبرا من الأشجار لمسافة نصف فرسخ .

وكانت القاهرة قد بدأت فى النمو منذ نهاية عهد الفاطميين. وما من شك أنه منذ البداية بنيت منازل جديدة، نظرا لأن المدينة كانت مزدحمة بسكانها إلى درجة الاكتظاظ ، وبدأت فعلا تنفجر وراء أسوارها ، حتى أن الأبواب التى لاتزال قائمة ، وخاصة باب زويلة ، صارت داخل المدينة منذ زمن بعيد ، تماما كما حدث في باريس حيث تعيّن أقواس النصر فيها موقعى بابى سان دنيس وسان مارتان. وتتحدث النصوص العربية التى ترجع إلى القرن الخامس عشر عن ضاحية باب زويلة باعتبارها جزءا من القاهرة . وهذا أيضا شبيه بما حدث فى باريس فيما يتعلق بـ «ضاحيتها» بواسونيير وسان دنيس.

وبعد ذلك جدت ظاهرة مختلفة حين اتصلت المدينة بالقلعة ، حتى لم تعد القلعة فى نهاية الأمر معزولة، وخاصة فى نهاية القرن الرابع عشر، حين وصلت مبان كثيرة بينها وبين المدينة .

وقد أصاب مارسيل كليرجيه حين كتب:

كان لإنشاء القلعة رد فعل قوى جدا على المناطق المجاورة لها . فهذه الضواحى ، بعد أن زحفت على الجبانات ، انتشرت حتى وصلت إلى أسفل القلعة. فنقل إلى الرميلة سوق من أهم الأسواق في أى مدينة عربية ، وهى السوق التى تباع فيها الخيل والحمير والجمال. وفى الموقع الذى كانت تحتله من قبل وحدات الجيش الفاطمى، بنيت حدائق وبحيرات فسيحة ، فأصبح هذا الحى أكثر جمالا ، وتمتع به سكان القلعة . وظهرت فى الغرب فى ذلك الوقت حدائق أخرى ، وخاصة عند باب اللوق ، بحيث أصبحت هذه المناطق أشبه بالمتنزه العام، وقد بقيت أجزاء منه حتى عصر المماليك.

وقد استمر هذا الاتساع جنوبا وشمالا وراء باب النصر وباب الفتوح ، كما قامت مبان كثيرة فى حى الحسينية . وعلى هذا النحو ذاته ، بنيت بيوت كثيرة على طول بركة الفيل

وعلى جانبى الخليج ، وأقيمت على هذا الخليج جسور ذات قوس أو قوسين وممر ضيق وأسوار عالية . وحين كان الخليج يمتلئ بالماء ، فلابد أن ضفافه - بما يحيط بها من مبان ذات نوافذ محلاة بالمشربيات - كانت تشكل منظرا شيقا للغاية.

* * *

هذه المجموعة من المدن المختلفة، وهى التى كونت مجتمعة ما أطلق عليها رحالة العصور الوسطى من الأوربيين اسم القاهرة الكبرى، أفادت من الناحية الاقتصادية فائدة كبرى، بحكم موقعها عند التقاء الطرق التجارية ، إذ استخدم الطريق بين الشرق والغرب لنقل التجارة بين إفريقية وآسية، وفى حج المسلمين الافريقيين إلى مكة . أما الطريق الآخر. فقد جلب إلى القاهرة مقدارا كبيرا من البضائع الغالية التى وصلت إلى مصر برا من وسط إفريقية والحبشة. وعن طريق البحر، جاء أيضا إلى القاهرة من الهند والصين سيل من السلع النادرة، التى اتخذت طريقها فى النيل إلى الاسكندرية ، وهناك جاء الأوروبيين لشرائها .

وهكذا أصبحت القاهرة مركزا تجاريا عظيما، تجلب بضائع الشرق الأقصى وترسلها فى شتى طرق الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط. هذا هو العصر الذهبى لتجار التوابل . ويظهر لنا هذه النقطة قول بيلوتى:

أن من له السيادة فى القاهرة يمكنه أن يسمى نفسه أيضا رب العالم المسيحى وسيده، ورب جميع الجزر والبلاد التى تنتج التوابل . هذا هو السبب فى أنه لايمكن إرسال منتجات التوابل إلى أى مكان أو بيعها فى أى بلد سوى فى بلاد السلطان. لأن القاهرة تقع بين بحرين : فهناك ، أولا البحر الغربى الذى تقع عليه الاسكندرية ودمياط ويافا وبيروت وسورية ، وهناك بعد ذلك البحر الذى يقع فى الناحية الأخرى من البلاد ، والذى تقع عليه جدة ، ميناء مكة. من هذا البحر تسافر البضائع من مكان إلى مكان على طول الساحل وتصل آخر الأمر إلى الطور، حيث يوجد ميناء جبل سيناء ؛ والجمال التى تتحرك من مكة تأتى إلى هذا الساحل وتفرغ حمولتها فى هذا الميناء . ويسيطر سلطان القاهرة على هذا الساحل من مكة إلى ميناء جبل سيناء . وهكذا ، تقع بلاد السلطان بين بحرين مثل جزيرة ، فتتحكم فى الهند والغرب معا . وليس هناك طريق آخر تسير فيه السفن الآتية من بلاد الهند، ولايستطيع تجارهم أن يبيعوا إلا فى بلاط سلطان القاهرة . وهذا القول يصدق أيضا على المسيحيين فى الغرب . وأنت تعرف ، لهذا السبب ، أنه ينبغى أن نكون دائما على علاقات جيدة مع السلطان، إذا أردنا أن نبيع ونشترى فى بلاده، أو إذا أردنا أن نذهب إلى بيت المقدس للحج.

كانت الملاحة في النيل في العصور الوسطى هامة وسريعة على نحو غير عادي . وتدل على ذلك هذه الفقرة التي يغلب عليها الطابع الشاعري :

لاتنس المراكب بأشرعتها المرسلة عالية في الهواء كالرايات ، وهي تسير أسرع من خيرة السهام حين تهب ريح مواتية . وهي زاهية كالحية الرقطاء، أو كالفواكه ذات الألوان المختلفة ، أو كالطاووس ، أو مثل بعض مقابر القدماء المنحوتة في جوف الأرض. إن هذه السفن، يدفعها تيار الماء المتدفق ، لتذكرنا بسفينة نوح في سيرها قدما . وحين تنشر أجنحتها من الأشرعة ، تطير أسرع من الريح في اندفاعها أو السحابة في سرعة تكوينها : أنها تسبح في الماء مع السمك.

كانت القاهرة تتلقى امداداتها من التموين أساسا ، عن طريق الملاحة النيلية التي كانت دائما نشطة . وقد رأى ابن سعيد[1] في النيل عددا كبيرا من السفن جالبة من بحر الاسكندرية وبحر الحجاز بضائع آتية من جميع أرجاء العالم. وبعده بمائة سنة ، كانت منظر السفن لايزال يثير حماس ابن بطوطة [2]، حيث يقول :

وإن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ... ولايفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك.

وبعد ذلك بقليل ، كتب فريسكوبالدي يقول:

يسير النيل على طول جانب واحد من المدينة، ولها ميناء جيد. وحينما كنا هناك ، رأينا عددا كبيرا من القوارب ، بحيث أن كل ما رأيته في موانى جنوة والبندقية وأنكونا مجتمعة - دون أن أحصى السفن ذات الطابقين - لاتبلغ ثلث عدد القوارب التي كانت هناك، وتبلغ في مجموعها أربعمائة قارب أو تزيد.

ووصف لنا بيير بيلون ما شاهده بهذه العبارة:

ترسو القوارب والسفن بأنوعها المختلفة عند قرية بولاق لتفريغ ما تجلبه إلى القاهرة. وقد شاهدنا سفنا في النيل تسمى جروما، وهي على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة ، بعضها

١- راجع رحلة ابن سعيد في الخطط ١ : ٣٦٧ .

٢- رحلة ابن بطوطة ٣٦-٣٧ (ط. بيروت) .

منخفض منبسط عريض ومستدير الشكل تقريبا وأكبرها شبيه بالقوارب في نهر السين، إلا أنها أقصر بكثير ، وهي تنقل حمولات أكثر من غيرها ، ولها شراع مثلث الشكل . والنوع الأصغر منها، وهو تلك السفن ذات الشراع المربع ، لاترحل بعيدا عن بولاق : فهي تستخدم فقط لعبور النيل ، أو لنقل المؤن من القاهرة إلى القرى، أو لنقل الدواب من ضفة إلى أخرى . ولهذه الفلك التي تبحر بعيدا إلى دمياط والاسكندرية شراع مثلث ويمكنها أن تدخل البحر الهادئ في طقس معتدل .

* * *

وكتب ابن خلدون[١]:

من لم ير القاهرة لايعرف عز الاسلام. فهي حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الاسلام، وكرسي الملك ، تلوح القصور والأواوين في وجوهه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضئ البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطئ بحر النيل الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت في سلك المدينة تغطى بزحام المارة ، وأسواقهم تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقينا من شيوخنا وأصحابنا، حاجتهم وتاجرهم ، بالحديث عنه ... فقال (أحدهم) ... إن الذى يتخيله الانسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها.

تعتبر هذه الفقرة الشاعرية مقدمة مناسبة لوصف العاصمة المصرية في زمن المماليك. ولكن يجب علينا أن نلاحظ أنه ليست جميع المعلومات الواردة في هذه الفقرة دقيقة، حتى يظن مؤرخنا أنه مضطر إلى اضافة هذه العبارة [٢]: «إن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة ، كما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين» . ولكن القاهرة التي لم تكن في أي وقت مضى مركزا علميا في مستوى بغداد أو قرطبة ، كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزا للسياسة والادارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية ؛ ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع ، فإنها في مجال الانتاج الفكرى كانت من الطبقة الثانية. وما

١- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لابن خلدون : ٢٦٤ (ط. لبنان) .

٢- مقدمة ابن خلدون : ٧٧٨ وأنظر أيضا : ٦٤٤ (ط. بيروت ، ١٩٦١) .

من شك أن مدارس القاهرة استمرت تخرج مدرسين أكفاء ، ولعل هذا هو ما يقصده ابن خلدون حين يقـــول [١]: «وانتقل شأن العلم إلى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد». وما من شك أنه وجدت شخصيات كانت لها شهرتها المحلية وأدباء كانوا موضع حديث الناس، كما وجد فى المدارس والمساجد بطبيعة الحال مدرسون لتدريس الكتب السماوية، وحتى التاريخ. وقد قام هؤلاء بتعليم تلاميذ يطمحون فى أن يخلفوا أساتذتهم .

ولاينبغى أن ننخدع بتكاثر المدارس الدينية والمساجد فى ظل حكم سلاطين المماليك ، فليس لذلك علاقة بنوع المدرسين، إذ لم يتخلف لنا عنها اسم واحد عظيم . لم تخرج هذه المعاهد العلمية الكثيرة شخصية عظيمة أو كاتبا موهوبا، فهى لم تزد على كونها مدارس لتدريب المدرسين . وباستثناء «المقدمة» لابن خلدون ، ذلك العالم الفذ الذى تلقى تعليمه فى المغرب، لم يظهر فى القاهرة أى عمل أصيل . وقد تميز هذا القرن بكتّاب الموسوعات والسير، التى كثيرا ما كانت قليلة القيمة ، وواضعى المجاميع : فلم تعرف فيه أعمال تتميز بالاصالة. كان هؤلاء الرجال يستحقون فى حياتهم عبارات المديح، وسيرا موجزة مليئة بالنعوت الرنانة ، ولكن أسماءهم تسقط سريعا فى طيات النسيان . ويذكرنا هذا بقول بلزاك : «إن مجد الجراحين شبيه بمجد الممثلين، الذين يعيشون فقط أثناء حياتهم، ولاتقدر مواهبهم بعد أن يختفوا». ويصف المقريزى فى القرن الخامس عشر معلما ناشئا بأنه كان يشبه الانسان فقط فى خلقه ولايتميز عن الحيوان إلا بقدرته على الكلام؛ ثم توقف التعليم فى هذه المدرسة التى كان يعلم فيها تدريجيا . ولم ينضب معين العبقرية الخلاقة للكتّاب العرب على هذا النحو فجأة. فنجد فى القرن الحادى عشر مؤلفا يفتخر بأنه فى وضعه لكتابه يتميز بموهبة حسن الاختيار، فإن فن الاختيار من ذكاء المرء. وبعد ذلك بقرنين ، عمت هذه الفكرة . ويقول فى هذا كاتب آخر: «إن التأليف اليوم لم يعد أن يكون جمعا لما تفرق وضما لما تشتت». هذه مجرد ملاحظات وليست محاولة للنيل من مكانة القاهرة، لأنى ممن يعتقدون مع وليام مارسيه بـ «أن الأدب ليس كل الحضارة». فإن المبانى والأعمال الفنية كافية بأن تخلد مجد السلاطين المماليك.

وهكذا نجد أنه فى خضم هذه الحركة الكبرى فى مصر عامة والقاهرة خاصة، كان دور السلع أكثر أهمية من دور الأفكار . فوجدت طبقة بورجوازية من التجار الذين نعموا بملذات الطعام وبقدر من الراحة. وبهذا المعنى، استطاع أهل القاهرة أن يحققوا مستوى مرتفعا من المعيشة.

١- المصدر نفسه : ٧٥٠ .

فأصبحت عاصمتهم سوقا ذات أهمية دولية. وكان لتجارتهم العالمية تأثير كبير على نمو المدينة.

* * *

يقسم المقريزى[١] المؤرخ سكان مصر إلى سبع فئات، وبالرغم من أنه تقسيم اصطناعى ، فهو لايخلو من قيمة. وتشتمل هذه الفئات على: رجال الدولة وجندها ؛ وأثرياء التجار ممن سعد حظهم ؛ والباعة مثل تجار الأقمشة وأصحاب المطابخ والحوانيت فى الأسواق ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم صغار الطبقة المتوسطة؛ وأهل الفلاحة والزرع - وبعبارة أخرى أهل القرى والريف؛ ورجال الدين والمعلمين وطلاب العلم- وفيهم القضاة ، وكتّاب المملكة ورجال العسس ؛ ثم أصحاب الحرف والصناعات والعمال والحمالين والسياس والنساجين والبنائين وغيرهم من فئات العمال المختلفين؛ ثم فقراء الشحاذين والبؤساء . وكما يستدل مما لدينا من معلومات ، لم تكن هذه الفئات طبقات مقفلة لامخرج لأفرادها منها. وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هم المماليك، الذين كانوا طبقة ممتازة فوق جميع السكان المختلطين أشد الاختلاط بحيث لم يكن بين أفرادهم رابطة عامة تجمعهم ليدافعوا عنها . ولم تعرف مصر البناء الطبقى للمجتمع ، فقد اشتملت الأسرة الواحدة على التجار ورجال الحرف والمعلمين . ونحن نعرف أن التجارة والاشتغال بالتعليم الدينى كانتا صناعتين متداخلتين ولم تتعارضا أبدا اجتماعيا . وهكذا لم يلتزم الناس بالبقاء فى طبقتهم الاجتماعية . ولعبت حالات الافلاس المالى دورها فى انتقال الأفراد من طبقة إلى أخرى؛ وهناك حالات السجن ومصادرة الأموال أيضا. وكانت حالات الاثراء أقل حدوثا ، ولكنها كانت موجودة . ولنضرب على ذلك مثلا حالة أحد أبناء الفلاحين من الدلتا ، الذى كان يجلس فوق حماره فى الأسواق يبيع القماش الخام وغيره من المنسوجات ؛ كان مجرد بائع متجول . وبعد موته، بلغت تركته عشرين ألف دينار نقدا ، دون حساب عدد كبير من الدواب .

واحتفظ المماليك بروح عسكرية لاتعرف الرحمة نظرا لخمول أصلهم وبسبب تدريبهم وتعليمهم . وبالرغم من عدم تحيزهم ، فإن طبيعتهم العسكرية جعلتهم يؤثرون الحرب على السلام . ويفضح تاريخ قواد المماليك أطماعهم، فقد اعتادوا حياة الخطر وسيطر عليهم الخوف من المستقبل . فأعمالهم التى تشف عن غرورهم وتبذلهم يمكن تفسيرها على أن الدافع الوحيد لها هو الأنانية . وقد قال المقريزى [٢]: «نزل بالناس من (المماليك) البحرية بلاء لايوصف

١- الخطط ٢ : ٤٩٢ .

٢- الخطط ٢ : ٢٣٧ .

ما بين قتل ونهب وسبى بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا فى الفساد على ما فعله البحرية». وكما هو الحال بالنسبة للجنود المحترفين فى كل عصر وفى كل دولة ، كان المماليك مغامرين ؛ ونقصد بذلك أنهم لم يكن لديهم جنوح نحو المغامرة والخطر فحسب، بل غلب عليهم التمادى فى تهورهم. وأنه لمن المؤسف أن خلافاتهم الداخلية لم تسفر إلا عن جهد ضائع.

وهم رجال جلبوا إلى مصر كأرقاء ابتيعوا بالمال مثل سائر السلع ثم حررهم سادة كانوا أنفسهم عبيدا من قبل، واتخذوا لهم شخصية قائمة بذاتها ، تحت اسم جديد ، وحاولوا أن يضيفوا شيئا إلى صرح الحضارة الإسلامية . فأقام المماليك فى البلاد إدارة صالحة رغم تعقيدها ، وكونوا جيشا أفسدت عناصره الحياة السياسية فى الداخل، كما حدث على أيدى العصابات الكبرى أثناء حرب المائة عام، ولكنه جيش تميز بشجاعة لاشك فيها ، وكثيرا ما انتصر فى الحروب . فكانت تسيطر على مصر حكومة أقلية من الأطفال المفقودين ، الذين شغلتهم امتيازاتهم وأشبعت نفوسهم بفكرة ارتفاع قدرهم، كما هو واضح من أزيائهم الباهرة. وكانوا يكوّنون مجتمعا مقفلا تماما، لايقوم حق السيادة فيه على امتيازات المولد أو الثقافة أو الثراء ، لأن أى شخص لم ينشأ فى الرق لايحق له أن يصبح سلطانا . فى هذا المجتمع الغريب كان باستطاعة المملوك بعد تحريره أن يصل إلى أرقى مناصب الدولة، بينما الإنسان الحر فى البلاد مقيد فى تبعية الأرض. وينطبق قول شاتوبريان «مملكة بلا شعب» على عهد المماليك أكثر من انطباقه على فرنسا القديمة. كانت الدولة ملكا خاصا للسلاطين ، يديرونها بقوة لاتكل، مثل ضيعة خاصة، ولم يحاولوا أن يخففوا من غلوائهم بفيض من الشعارات المزيفة عن الحرية . ومع ذلك، فقد كانت شجاعتهم بقدر كبريائهم؛ وخير دليل على ذلك ، هو دراسة نضالهم ضد الصليبيين والمغول.

وفى ظل الحكم الحديدى للمماليك، أولئك الذين كثر بينهم القواد والسلاطين ووجدوا التأييد من رجال القضاء وإدارتهم التقليدية القوية ، تحكمت مصر الإسلامية فى البحر الأبيض المتوسط. وقد تم ذلك بفضل مساعدة الأساطيل الأوروبية، وخاصة فى جنوة ، التى كانت حريصة على حماية رضائها التجارى. ونمت مدينة القاهرة نموا كبيرا ، وظهرت المبانى الرائعة فى شوارع المدينة القديمة وفى الضواحى. ورغم أنه لايمكننا أن نغض الطرف عن النضال الدموى الذى دارت رحاه فى القاهرة تحت حكمهم، إلا أنه يجب أن نقرر أنه كانت للمماليك أفكار عظيمة عملوا على تنفيذها . ومهما يكن من أمر، فإن عصر النهضة الايطالية فى كثير من النواحى لم يكن أقل ألما . فمثل معاصريهم فى جنوب أوروبة ، الذين شغلوا بمنازعات

لانهاية لها ، خلف المماليك وراءهم شواهد ملموسة من الفخامة ، كالقصور والمساجد والأضرحة الضخمة. ويكفى أن نذكر هنا عبارات جوبينو المشهورة :

فى مدينة القاهرة، تسيطر ذكرى المماليك. لقد قاموا بكثير من الأعمال ، وشيدوا كثيرا من المبانى الجميلة القوية. لقد استطاعوا وحدهم أن ينحتوا من الرخام والحجر تلك الكمية من محفورات الأرابسك التى تضفى روعة على مبانى آسية بأسرها . ويبدو أن هؤلاء الأرقاء السابقين- المماليك- بمجرد ما حملوا سيوفهم العريضة فى جنبهم وقبضوا على ناصية الحكم، شغلت عقولهم أفكار عريضة كبرى؛ فكل ما شيدوه لانجد له مثيلا فى أعمال المسلمين فى سائر العالم .

لقد خيمت الكآبة على القرن الخامس عشر بصفة خاصة بسبب الانقسامات العنيفة التى أدت إلى كثرة الاشتباكات بين فرق المماليك بصورة متزايدة . ولم يكتف المماليك بافناء بعضهم بعضا، بل دمروا الأسواق حين لم تغلق الحوانيت فى الميعاد . فبالنسبة لأهالى القاهرة المسالمين ، كان حكم المماليك كابوسا مقيما، فهم يمثلون سلطة تبطش ولاتحمى. ولم يفكر أصحاب الحرف والحوانيت فى إيجاد تنظيم لهم يحررهم من هذا النير. وفى حالة وقوع الخطر، اكتفوا بأن أخفوا بضائعهم الثمينة فى أماكن آمنة.

كانت الحياة فى القاهرة قلقة بسبب سوء سلوك الطبقة العسكرية، وهو أمر كان مألوفا أيضا منذ عصر الفاطميين. ومع ذلك ، فلم تحدث فى العاصمة أية ثورات شعبية .

وإذا كان فى استطاعتنا أن نستخلص بعض النتائج مما سبق، فيمكننا أن نقول أن سكان القاهرة كانوا قوما هادئين فرض عليهم ألا يشغلوا أنفسهم بشؤون الحياة العامة. وفى الواقع، أن هذا الجمهور الذى اعوزته الوحدة بقدر ما أعوزه التصميم ، بسبب تكوينه المختلط إلى أقصى حد، لم يبد رغبة فى الاشتغال بالشؤون العامة. وكما كان الحال فى أماكن أخرى، وجد الجنود وموظفو الحكومة ورجال الدين والتجار ورجال الحرف . وكان رجال الجيش ، مثل الحكام، من أصل أجنبى . وكانوا يقومون بتنفيذ أوامر الحاكم الذى يدفع لهم رواتبهم ، كما كانوا يستغلون أو يسيئون استغلال السلطة الممنوحة لهم. ولم يكن السلطان وجيشه السلطة الوحيدة فى البلاد، فقد كان عليهم أرضاء جيش آخر، هو جيش الاداريين وجامعى الضرائب ، الذين يمسكون فى أيديهم بخيوط الخزانة . وعلى أية حال ، فإن هذه الفئة الأخيرة لم تسقط حكما أو تعزل سلطانا قط بسبب عدم رضائها أو عدم تعاونها . ونظرا لعدم استطاعة السلاطين أن يستغنوا عنهم، فقد نظروا إلى مصر بمكر وذكاء على أنها ملكيتهم الشخصية ويجب ادارتها بواسطة الكتبة الاداريين .



(٥)

الشوارع والمنازل

أورد لنا أحد الرحالة موجزا بالعيوب التي لايمكن اغفالها إذا أردنا أن نقدم وصفا للقاهرة في العصور الوسطى، قال:

ليس للمنازل شكل الاناقة الخارجية الذى تتميز به منازلنا أو مظهرها ؛ والشوارع ضيقة وغير مرصوفة ومتعرجة ؛ وهناك ساحات هائلة غير منتظمة الشكل، خالية من مبان تزينها أو تمثال يميز وسطها أو يجمله ، تتحول أجزاء كبرى منها إلى برك من الماء أثناء الفيضان ، ثم تعود حقولا وحدائق حين تنحسر مياه النهر . وفى الشوارع يتدافع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ، ويختصم أفراده حول حق المرور مع حصان المملوك، ودابة القاضى، والجمال التى تستخدم بدل العربات . والحمير، وهى الركوبة الأكثر شيوعا .

وإذا ما سرنا وراء باب الفتوح نصل الآن إلى شارع بقى كما كان فى العصور الوسطى. وهو يمتد شمالا وجنوبا لمسافة أربعة كيلومترات ونصف تقريبا ، من هذا الباب الجنوبى إلى ضريح السيدة نفيسة . هذا الشريان الطويل، أو العمود الفقرى للقاهرة ، وهو مظهر وحدة المدينة . وقد احتفظ بمظهره القديم، على الأقل فى جزئه الشمالى. وتمتد على جانبيه بوابات غريبة، وحوانيت ذات أبعاد صغيرة بحيث أنها تبدو كخزائن قد أزيحت واجهتها لتكشف عن مضمونها . وأمام كل حانوت مصطبة من الحجر أو درجة صغيرة بطول مدخل الحانوت، وعرضها يكفى ليجلس عليها رجل . وبعد أن يفتح التاجر الحانوت ، يضع على المقعد حصيرا أو سجادة أو وسادة ، ثم يجلس ؛ وحين يأتى إليه مشتر يجلسه إلى جانبه . وفى المساء ، عندما يعود أصحاب الحوانيت إلى بيوتهم، ترى المكان مهجورا .

والشارع من حيث نظامه يسوده الاضطراب ؛ فالبيوت تبدو وكأنها أقيمت بغير خطة أو أدنى محاولة لصفها بانتظام. ونظرا لأن المالك أخذ من الأرض ما أراد ليبنى عليه، فعلى المارة اليوم أن يدوروا فى سيرهم حول البيوت . ولم يترك حيز فارغ ؛ فالحوانيت والبيوت قد بنيت متلاصقة على نحو اضر بنظام الشارع ، كما هو الحال فى القرى المصرية حيث تحشر البيوت سويا حتى لاتأخذ سوى أقل قدر ممكن من الأرض التى يمكن زراعتها . وبالرغم من أن

الشارع مستقيم فى اتجاهه العام، إلا أنه ينحنى بطريقة لاتكاد تلحظ . ونتيجة لهذا فإن امتداد الطريق يبدو وكأنه مسدود. ونظرا لكثرة المساجد فى هذا الطريق الهام، فهناك دائما مأذنة على مرمى البصر.

ولقد قيل أن أحد حكام المغرب أنب أهل بلده حين وجد شارعا بلامسجد. ومثل هذه الشكوى لايمكن سماعها فى القاهرة، حيث تزدحم الشوارع بالمساجد . فعلى طول الشوارع المختلفة ، تجد المساجد الواحد بعد الآخر- مسجدين أو ثلاثة أو أربعة فى صف واحد، يستند بعضها إلى بعض . وتصعد إلى السماء فى كل مكان مآذن تزينها محفورات الأرابسك ، وقد نحتت بدقة بالغة بتصميمات متخيلة متنوعة، بعضها بعيد عنك، وبعضها الآخر قريب يشير إلى السماء فوق رأسك . وحيثما تنظر على مدى البصر تجدها، وتحس دائما كأن المأذنة التى مررت بها لازالت تراقبك لبعض الوقت. هذا هو الشعور الذى أدهش سنيور دانجلور فى عام ١٣٩٥ :

يوجد فى هذه المدينة- كما قد أخبرنا بحق- إثنا عشر ألف مسجد ، يؤدون فيها صلواتهم ويرتلونها. وهم يصونونها ويحفظونها نظيفة ، ويضئونها بمصابيح زاهية جميلة ، ومع ذلك فانت لاتجد فى هذه الأماكن للعبادة أى صور أو تماثيل ، واللون الوحيد الذى يغطيها هو اللون الأبيض ؛ وقد بنيت جميعا بناء متينا بالرخام . وهناك بعض المساجد الكبيرة الجميلة التى تبدو شبيهة بالكنائس المسيحية الجميلة .

وقال أحد الرحالة الأوروبيين ، إنه لو جمعت مساجد القاهرة فى مكان واحد ، لكونت مدينة فى حجم مدينة أورليان .

وكتب ابن بطوطة[1] - وهو أدق ملاحظة من ابن خلدون- ما يأتى:

ثم وصلت إلى مدينة مصر، وهى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل . وجاد وهازل، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها .

وقد وجد الأوروبيون ، الذين حيرتهم أيضا شدّة ازدحام السكان ، أنه من المستحيل الحصول على تفصيلات دقيقة. فكتب سيمون سيمونس فى سنة ١٣٢٢م : «فى اعتقادى -

---

١- رحلة ابن بطوطة : ٣٦ .

طالما ليس هناك تقدير أصح- أن القاهرة تبلغ ضعف حجم باريس ، وأربعة أضعاف عدد سكانها ؛ وحتى إذا اقترحت عددا أكبر، فهو أقل من الحقيقة».

وعندما اقترب القرن الرابع عشر من نهايته ، قال جورتشي دي دينو في غير مبالغة :

بابليون هي المدينة القديمة، والقاهرة هي المدينة الجديدة التي أسست وبنيت فيما بعد. وفي كلا المدينتين عدد السكان بلاحصر، إلى درجة أنه من المعتقد أنه يمكنهم تجنيد جيش من ستمائة أو ثمانمائة ألف رجل . إن عددهم لايقل عن ثلاثة ملايين شخص، ويقال إن منهم ما يزيد على سبعمائة ألف رجل وامرأة وطفل فقراء لدرجة أنهم لاينامون ليلتين متتاليتين في مكان واحد. أنهم يستلقون فقط على الأرض أو على المقاعد العامة حيث يكونون .

وفي رأى سيمون سيجولي :

يبلغ طول مدينة القاهرة أكثر من اثنى عشر ميلا، ومحيطها ثلاثين ميلا. وتحوى على أكثر من ثلاثمائة ألف من السكان، منهم ما يزيد على خمسين ألفا بلا مسكن أو سقف يحميه . وهناك- فوق ذلك- أكثر من عشرة آلاف رجل بلاثياب تستر أجسامهم ، سوى أسمال يسترون بها عوراتهم .

وقد اعتقد فريسكوبالدي أن عدد سكان القاهرة يفوق عدد سكان تسكانية بأسرها، وأن أحد شوارع المدينة ضم من السكان أكثر من أهل فلورنسة . ويقال أنه في الربع الأول من القرن الخامس عشر ، بلغ طول القاهرة خمسة عشر ميلا وعرضها خمسة أميال ؛ كما كانت مزدحمة بالسكان إلى درجة أن ثلاثة أو أربعة أشخاص لايمكنهم أن يسيروا في شارع دون أن يصطدموا ببعض.

كانت تلك هي الحال حتى في الشوارع الرئيسية . ولم يكن أحد يذهب إليها بقصد النزهة ، وإنما يذهب إليها الناس مضطرين لقضاء حاجاتهم أو لمساعدة غيرهم. لايستطيع أحد أن يسير دون أن يتدافعه ذلك الجمهور المزدحم الصاخب . لقد كان هذا التدافع بين المارة وراكب الخيل. وهذا الفيض البشرى هو السبب في نشوء الفكرة أن المدينة مزدحمة .

ولكن ماذا كان حال الشوارع الضيقة ؟ لقد اشتكى منها الكتاب العرب أنفسهم ، ويئس الرحالة من المتاهة المحيرة التي تكونها ، ومن الشبكة المعقدة التي تشكلها الممرات الضيقة المتربة. وكان أكثر الأزقة قصيرا وصغيرا جدا وأضيق من أزقة البندقية . وفي بعض الأحيان، بلغ طول هذه الشوارع مسافة بيتين أو أكثر قليلا بحيث أن المدينة كلها كانت مجرد خليط من

البيوت . وفى أماكن معينة، كانت هذه الأزقة تمر تحت البيوت . ويذكرنا بهذه الحقيقة شارع لازال يحمل إلى اليوم اسم شارع تحت الربع . هذه الممرات خلال المباني، التى لم يكن يعرفها سوى أولئك الذين كانوا على علم تام بالمدينة، تذكرنا - لولا اختلاف الارتفاع- بـ «ترابول» Traboules فى مدينة ليون. وبالإضافة إلى ذلك ، فكان هناك بعد كل عشرين أو ثلاثين بيتا بوابة لاغلاق هذه المنطقة. ولم يكن الهدف من هذه البوابات هو الدفاع فى زمن الحرب، وإنما الغرض منها هو منع اللصوص من دخول البيوت أثناء الليل، أو عرقلة سبيل خروج اللص الماهر الذى يتمكن من الدخول . وفى بعض الأحيان، كانت البوابة تغلق فى منتصف النهار، وكان الانسان يضطر إلى أن يعود أدراجه ويدور فى المنحنيات حتى يصل إلى غايته. وقد ساعدت هذه الشوارع الصغيرة المسدودة من هنا وهناك على تيسير مهمة رجال الشرطة ، الذين خفض عددهم إلى أقل قدر ممكن.

وكانت الأزقة من الضيق بحيث أنه يصعب على رجلين أن يسيرا جنبا إلى جنب؛ وكان الجمل بحمولته كفيلا بعرقلة الحركة أكثر مما تفعل عربة فى بعض شوارع باريس. وما من شك أن جملا عليه حمل ينوء به من قصب السكر كان يرغم أكثر المارة كبرياء أن يلصق جسمه بالحائط . ويذكر الرحالة الأوروبيون أن الشوارع كانت عادة مظلمة ، بسبب أن البيوت فى بعض الأماكن كانت قريبة من بعضها البعض لدرجة أن حواف الأسطح تشابكت ، ومدت الحصر من سطح إلى سطح. وكان هناك تعويض عن المشقة التى يسببها الشارع الضيق وهى البرودة التى ينشرها . فسمحت الشوارع الضيقة بمرور تيار من الهواء المنعش . كما ألقت البيوت العالية ظلا جميلا على المارة. فتلك أذن متاهة من الشوارع الصغيرة الضيقة التى تدور بين جدران بلا نوافذ ، وتعترضها أحيانا ميادين غريبة الشكل. وقد أوجز لنا سيمون سيميونس وصف الحال فى مطلع القرن الرابع عشر فى هذه العبارة:

تجد فى شوارع المدينة المظلمة الملتوية كثيرا من الأركان والمنحنيات ، وهى مليئة بالغبار وغيره من القمامة ، وغير مرصوفة على الاطلاق . وتزدحم شوارعها الهامة بجمهور صاخب ، ولاينتقل الانسان من شارع إلى آخر إلا بمشقة كبيرة.

وظل الحال كما هو حتى نهاية القرن الخامس عشر ، حين كتب بريدنباخ :

زرنا شوارع التجار ، فذكرتنا بالزحام فى ساحة القديس بطرس فى رومة فى أعوام الاحتفالات . فهناك عدد ضخم من الباعة والمشترين حتى ليصعب على الانسان أن يصدق ما تراه عينه، فهو أقرب إلى الخيال. ولا أعتقد أن هناك مدينة أخرى فى العالم اليوم تبلغ مبلغ

القاهرة فى ازدحامها وحجمها وثرائها وسلطانها . دخلنا مرة فى شارع ثم فى آخر، وبعد أن مررنا خلال بوابة حديدية ، وصلنا إلى أكثر المناطق ازدحاما . وبعد أن تدافعنا بالمناكب خلال كتل من البشر، رأينا بقعة لاتستطيع الكلمات أن تصف ازدحام الناس فيها .

ويمكننا أن نتصور بسهولة الجماهير المتدفقة من الشوارع الصغيرة الجانبية، حتى تختفى فى زحام كبير. وقد رأى رحالة ساخط خصب الخيال «قوما يسيرون فى الطرقات وأذرعهم مدلاة دون اهتمام بأى شئ ، كأنهم ينتظرون لمسة من عصا سحرية تعيدهم إلى أنفسهم وتضئ وجوههم المجهدة بالرغبة والأمل» . ولاينبغى أن ننسى أن الشعب المصرى، وخاصة فى القاهرة، كان لين العريكة، رفيقا، كثير الضوضاء فى صخبه ، ومليئا بالحياة . واستمر هذا البحر من البشر فى سيره بروحه المرحة نحو دوامة الحياة اليومية دون أن تشغله قضايا الحكم أو فلسفة الوجود.

وأخيرا يقدم لنا هذا الوصف صورة حية عن الحياة فى المدينة :

يخترق المدينة ثلاثة شوارع؛ وهى جميلة بالمقارنة مع غيرها من الشوارع الضيقة الملتوية، بسبب أن كل شخص من الأهالى يبنى منزله حسب هواه، فيسد الطريق، ويحيل الشوارع إلى أزقة ضيقة قصيرة يصعب المرور فيها ، وخاصة فى أيام السوق. وكثيرا ما اضطروا إلى أن يفتحوا ممرات عبر البيوت ليستمر المرور خلالها ، ولكنها كانت شديدة الظلمة وتسمح بارتكاب الجرائم. وأهم شارع من الشوارع الثلاثة الطويلة يخترق المدينة طويلا. ويعقد فيه السوق فى أيام الاثنين والخميس . وبالرغم من اتساع الطريق، يصعب السير فى أيام السوق بسبب الازدحام الشديد؛ فهنا تأتى المأكولات بشتى أصنافها من خارج المدينة أو داخلها لتباع. وفى شارع آخر ينتهى إليه، توجد الحوانيت التى تباع فيها خيرة بضائع الجملة.

وقد عاقت الحركة فى الشوارع تلك المصاطب التى وضعت أمام الحوانيت ، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك؛ فالباعة المتجولون يرصون سلعهم من الخبز وغيره من المأكول على هيئة أكوام على الأرض بالرغم من أن الشرطة كانت دائما تلاحقهم . وقد زاد من عرقلة الحركة فى الشوارع جماعات السقائين والباعة والمتجولون الذين يعرضون على المارة ما يحملون من سلع رخيصة ومأكولات ، وكانوا يلفتون النظر بنداءاتهم المتميزة كما هو مألوف فى جميع مدن العالم، «فكل ينادى على بضاعته بطريقته الخاصة» ، كما قال سينيكا فى وصف روما القديمة. ولم يكن هؤلاء الباعة يدخلون البيوت وإنما كانت تفتح المشربيات وتدلى منها لهم سلال بحبال طويلة ، فتوضع فيها البضائع وترفع على هذا النحو إلى البيوت . وكذلك

الحلاقون اتخذوا لهم مواقع يحلقون رؤوس زبائنهم وذقونهم فى الهواء الطلق . «وهناك رجال يسيرون فى الشوارع ومعهم ما يشبه المرآة معلقة فى صدورهم ويصيحون : اللى عايز يحلق؟! » ولاينبغى أن ننسى أصحاب الحرف الذين يعملون أمام دكاكينهم. فترى عددا من الحمالين يلبون أى طلب للمشترين : «فهؤلاء الأفراد على استعداد للقيام بأية خدمة لقاء أجر زهيد». وعلى مسافات متباعدة ، يوجد مجبرون لاسعاف من أغمى عليهم أو من أصابهم أذى، ولتضميد الرضوض . ووتتخذ «ألف ليلة وليلة» من باب زويلة موقعا لحادثة نشل. وكانت دوريات العسس تمنع الاضطرابات وتتربص باللصوص ، وكان قائد الدورية يتخذ لتفتيشه طريقا مختلفا كل ليلة، وكان يسير أمامه حامل مشعل ويحيط به ضباط الشرطة والسقاؤون وحاملو الفؤوس ، وكانوا جميعا مسؤولين عن مقاومة الحرائق التى قد تشب أثناء الليل، وكل شخص يضبط فى حالة تشاجر أو سرقة كان يعتقل.

ويبدو أن قوانين المرور فى الشوارع لم تكن مطبقة بدقة، نظرا لتكرر صدورها من حين إلى آخر ، ولكنها مع ذلك تثبت أن السلطات المسؤولة لم تهمل هذا الموضوع. فلم يسمح مثلا بمرور حمولة من القش أو أخشاب الوقود فى الطريق الرئيسية ؛ ولم يسمح أيضا للسائس أن يقود فرسا فى هذا الشارع؛ وكان لزاما على السقائين أن يغطوا قربهم الجلدية حتى لاتبلل مياههم المارة؛ وألزم أصحاب الحوانيت بأن يقيموا قدرا كبيرا مملوءا بالماء يسهل استخدامه لمقاومة الحرائق. هذه الاحتياطات كانت فى واقع الأمر بدائية ، كما أن إزالة مظلات الحوانيت والمصاطب من أجل القضاء على العوامل المساعدة على الحرائق ومن أجل إزالة العوائق أمام رجال الحريق لم تكن ذات قيمة فعالة فى عام ١٠١٤م، وكانت الصدفة وحدها هى السبب فى قلة الكوارث. ومع ذلك، فقد حدثت حرائق خطيرة فى عام ١٣٢١، وبصورة أشد فى عام ١٣٥٠ . فجند جميع السقائين ، واستدعى جميع النجارين للقضاء على كل شئ قابل للاحتراق فى طريق النار، ولكن دون جدوى. وقد استمرت الحرائق فى سنة ١٣٥٠ لمدة شهر كامل .

وفى أثناء الليل ، كان النظام يقضى بأن يعلق التجار أمام مخازنهم مصابيح . ومع ذلك ، فحين دخل بريدنباخ المدينة بعد أن مر بالمطرية سنة ١٤٨٣، أشار إلى أنه «سار طويلا فى الظلام» . ولكن حسب رواية الحاخام الايطالى دابرتينورو، «يستطيع المرء أن يسير فى القاهرة بالليل وأثناء النهار، لأن جميع الشوارع مضاءة بمصابيح». ويذكر تريفيزانو على وجه التحديد أنه كان «من المألوف فى القاهرة- ضمانا للأمن- أن يعلق مصباح مضئ على باب أحد

البيوت، كل أربعة بيوت أو خمسة». ولكن هذا الاجراء لم ينفذ بدقة، لأنه أثناء حكم ابن قايتباى المخبول [١]، كان هذا الحاكم «يخرج بنفسه كل ليلة بعد صلاة العشاء ويجول فى الشوارع، يتقدمه مصباحان مستديران وأربعة مشاعل، ويسير أمامه عدد من العبيد السود. وإذا مر أمام دكان ليس له مصباح ، كان يأمر بغلق المحل بالمسامير ، وكان يبقى ليشرف على العملية بنفسه» . وفى شهر رمضان، كانت مآذن المساجد تضاء بمصابيح كثيرة، وكان منظر آلاف المآذن الوضاءة تترك فى النفس انطباعا قويا، كل واحدة منها مضاءة بثلاثة صفوف من عدد لايحصى من المصابيح . «وبسبب هذه المصابيح، كانت المدينة تبدو وضاءة كأنها فى وسط النهار».

وكانت الحكومة بين حين وآخر تبدى اهتمامها بأمر نظافة العاصمة، ولعل ذلك كان يحدث أكثر مما يشير إليه المؤرخون . فنحن نعلم أنه عند نهاية القرن الرابع عشر، كان التجار يلزمون بدهان واجهات حوانيتهم . وفى شهر ايار (مايو) سنة ١٤٧٧، صدر أمر بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة[٢]، وصدر أمر بهدم جميع المبانى التى أقيمت بغير طريق شرعى فى الشوارع والأسواق ، مثل كثير من المبانى التى كانت تدر دخلا، والسقائف ، والرواشن ، والمصاطب . وكانت عملية توسيع الشوارع ذات فائدة للمدينة، ولكن كثيرين من الأفراد تحملوا خسائر جسيمة بسبب إزالة ممتلكاتهم وحوانيتهم . واضطربت مدينة القاهرة حيال تدمير هذه المبانى، وخاصة تلك التى كانت تقع على الشوارع الرئيسية . لذلك كان هذا القانون موضع كراهية الجمهور.

ومع ذلك ، فإن الحكومة لم تحجم عن غايتها وإنما سارت قدما وقامت باصلاح الواجهات التى شوهت، كما أصلحت أبواب المساجد وقامت بتنظيف رخامها وتبييض جدرانها، وصدر أمر بتبييض الحوانيت وإعادة تجميل وجوه الرباع المطلة على الشوارع. وعين مفتش للطرقات الذى كانت مهمته حث الملاك على الاسراع بعملية التعمير والدهان . ويضيف مؤرخ عربى أنه، نتيجة لذلك استعادت المدينة جمالها الأول كما كانت عند زمن تأسيسها، وغدت رائعة كالعروس عندما تسفر عن وجهها أمام زوجها . وفى الوقت نفسه ، بدأ العمل عند باب زويلة لرفع مستوى الطريق إلى مستوى الشوارع المجاورة.

١- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ١ : ٣٤٦ (ط. القاهرة، ١٩٦٠) .

٢- انظر بدائع الزهور ٢ : ١٧١-١٧٧ .

وبالرغم من غلبة الأسلوب الشاعرى على كتابة مؤرخنا الذى يمدنا بهذه التفصيلات ، فإنه لايخفى دائما استياءه . فهو يخبرنا بأنه فى سنة ١٤٩٨، صدر أمر من السلطان يقضى بأن يقوم جميع أصحاب الحوانيت التى بالأسواق والشوارع بتبييض واجهات حوانيتهم وأن يزخرفوها بالدهان. وتحمل التجار بسبب هذا الأمر نفقات باهظة . ويرجع كاتبنا هذه الحالة إلى تحريض أفراد من أحط الفئات وتحريض البطانة التى تحيط بالسلطان.

وفى تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٥٠٣، صدر أمر من السلطان بأن يقوم أصحاب الحوانيت بحفر الشوارع بغرض تخفيض مستواها بمقدار قدم تقريبا نظرا لأن مستواها كان قد ارتفع بقدر ملحوظ . وكان المفروض ممن صدر إليهم الأمر أن يتموا العمل دون تأخير كبير؛ وكان هذا سببا فى ضجر كثير من الناس نظرا لعدم توفر العدد الكافى من العمال لحمل التراب بسبب كثرة الطلب.

وقلما ساءت الأحوال الجوية فى القاهرة؛ وإن وجود ميزاب لتصريف المطر فوق بعض الأبواب الفاطمية ليدل على أن المهندسين كانوا من أصل أجنبى. ومع ذلك ، فقد حدث أحيانا أن انهمرت أمطار غزيرة أدت إلى غمر الشوارع والأسواق بالمياه، وكما قال فلوبير:

استمر المطر أسبوعا ، وقد حاولنا مرتين اقتحام شوارع القاهرة بأحذيتنا الضخمة فوجدناها مليئة ببرك من الطمى، بينما كان الأهالى فى حالة تبعث على الاسى، يغوصون فيها إلى ركبهم وهم يرتعدون من البرد. وتوقف العمل، وأقفلت الأسواق، وخيم عليها الحزن والبرد ، وانهارت بعض المنازل بسبب المطر . والقيت الأتربة والقمامة على الوحل ليجف ؛ هكذا كان مستوى الشارع يرتفع بصورة مطَّردة .

وكان هناك عدد كبير من الرجال يُستأجرون للعناية بأمر نظافة المدينة، وكان لهؤلاء أيضا مساعدون مهرة آخرون. وقد كتب أحد الرحالة فى ذلك :

ترى فى شوارع القاهرة عددا كبيرا من الحدآن لا تكاد تصدقه العين، يحوم فوق المدينة فى حرية تامة ، وكثيرا ما رأيت هذه الحدآن بعينى رأسى وهى تأكل اللحم من فوق رؤوس أولئك الذين يحملونه خلال شوارع المدينة، وأحيانا تطير وتخطف اللحم من أيديهم، ولايستطيع إنسان أن يتعرض لها بأذى لأنها تأكل الرمم العفنة وغيرها من الفضلات . وبعد أن ينتهى فيضان النيل ويعود إلى مجراه الطبيعى، فإنه يخلف قدرا كبيرا من القاذورات ؛ وحينما يصل الفيضان إلى ذروته، يجرف فى الشوارع الرئيسية الحيوانات الميتة وغيرها من الأسماك والثعابين ، ولكن هناك عدد كبير من هذه الطيور الفظيعة يكفى لإلتهام كل شئ فى الحال.

ويخبرنا رحالة من القرن السادس عشر بأنه «غير مسموح قانونيا صيد هذه الطيور أو قتلها لأنها تنظف النيل من قاذوراته ، وكذلك المدينة التى لايمكن المحافظة على نظافتها بسبب كبر حجمها» .

* * *

لقد رأينا كيف كان سكان القاهرة يسيرون جماعات غفيرة . وكما يحدث اليوم لابد أن جماعات من الناس تجمهرت أمام مداخل المستشفيات والسجون . ويمكننا أن نضيف اليهم أولئك الذين تجمعوا حول الكتّاب العموميين، وهم فئة وجدت أيضا فى الأزمنة الحديثة. وإذا كان الكتّاب العرب قد أهملوا ذكرهم ، فلعل ذلك راجع إلى شدة اعتيادهم عليهم. هؤلاء الكتّاب العموميون ، الذين كانوا كثيرين جدا من غير شك ، أقاموا مكاتبهم فى الهواء الطلق وسدوا مداخل مبانى الحكومة والادارة.

هذا مكتب ذو مظهر جاد يتميَّز عما جاوره من الدكاكين . فعلى عدد من المناضد الصغيرة تجد عددا من الكتب وبعض الورق؛ وهناك تجد رجلا لبيبا ، أمامه محبرة ، يكتب وهو مرتكز على ركبتيه ، وقد انحنى نحو رجل آخر يجيب على أسئلته . فالكاتب رجل أهل للمشورة، ويطلب رأيه فيما يشكل من الأمور فى هذه الحياة .

وقد قيل:

إنه فى الأحياء القديمة تجد الناس على سجيتهم، يعاملون بعضهم بعضا فى يسر. فهم يحبون الحيوية والبهجة التى تتميز بها الشوارع الضيقة ، ويؤثرون الدكاكين الصغيرة وتلك الحياة التى هى أشبه بخلية النحل ، ويكاد المرء يقطع بأن ذلك ضرورى لسعادتهم. ومما يثير العجب فى هذه الأحياء هو ميل الناس إلى الحياة خارج البيوت، وإقبالهم المُبْهِج على الحديث، والألفة الطيبة التى تجمعهم ، ورغبة التمتع بالحياة تشيع فى وجوههم البشر.

والظاهرة العامة بين النبلاء وذوى المكانة الاجتماعية- فيما عدا حالات نادرة- أنهم يمتطون الخيل فى الطرقات، بينما يركب النساء الحمير. وليس هناك أطرف من رؤية هاتيك النساء وقد حططن على هذه الحيوانات الصغيرة التى تسير بهن. ويركب الحمير أيضا التجار الذين يرغبون فى إنجاز أعمالهم بسرعة.

وقد أوشك الحمار أن يختفى اليوم، كأحد الحيوانات التى ترجع إلى عصر ما قبل الطوفان، أما فى العصور الوسطى ، فكان هناك عشرون ألف حمار للإيجار فى المدينة . وكانت تقف

عند تقاطع الطرق، تنتظر فى صبر الزبائن الذين يرغبون فى ركوبها سواء داخل المدينة أو خارجها . وذكر أحد الرحالة أنه وجد من الحمير بقدر ما هناك من كراسى السيدان (يحمل عليها الأشخاص) فى نابولى، أو من قوارب الجندول فى البندقية، أو العربات فى رومة. ومن أعجب الأشياء أن لكل دابة سائقها ، رجلا كان أم طفلا ، يهمز الحمار من الخلف ليدفعه على الاستمرار في السير، بحيث كنت ترى دائما طابورا من الرجال والدواب على طول الطريق . ويقال أنه من أطرف المناظر رؤية هذا العدد الضخم من الحمير، ذلك الحيوان الوديع الطيب الذى يزين ببراذع كاملة من الحرير ، وقد طليت أذناه وعرفه وذيله باللون الأصفر.

ويقابل الخطو المتدافع للحمار المظهر الشامخ المتعالي للجمل: «ذلك الحيوان الغريب الذى يتهادى فى خطوته كالديك ويحرك رقبته كالبجعة» . فهناك مواكب مهيبة لا تنتهى من الجمال المتهادية، التى تأبى إلا أن تسير فى خط مستقيم، كأن استقامة الطرقات تتوقف عليها. وفى الواقع كان متوسط عرض الشوارع الرئيسية مثل عرض جملين محملين بالقش يسيران جنبا إلى جنب . ونعرف من مصادر أخرى أن جملا واحدا محملا بأخشاب الوقود- أى عرض تسعة أقدام- يستطيع أن يسير فى هذه الشوارع .

وهناك حادثة غريبة وقعت فى شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٥٠٨ تدل على مدى خطورة هذه الأوضاع . فقد حدث بعد أن خيم الظلام أن قاد فلاح خلال الشوارع جملين محملين كتانا، فأمسك هذا الكتان النار من مسارج أحد الباعة ، فلما أحس الجملان بالنار اندفعا مذعورين نحو الجمهور ووطآ باقدامهما المارة وقتلا عددا كبيرا منهم، إلى أن سقطت الجمال على الأرض فى آخر الأمر [١].

وقد لاحظ أكثر الرحالة أنه لم تكن هناك حاجة إلى شوارع تسمح بمرور عربات تجرها الدواب . ويذكر لنا واحد منهم: «يجب أن تعلم أنه لايوجد فى مصر- إلا فى حالات نادرة- أماكن تستخدم فيها عربات سواء للركوب أو النقل، كما هو الحال فى البلاد الغربية . فكل ما لاينقل بالسفن أو الجمال يتم نقله على ظهور الحمير والثيران».

وما من شك أنه وجدت أحيانا فى القاهرة وسائل أخرى للمواصلات ، ولكن هذه الحالات كانت من الندرة بحيث أن المؤرخين اهتموا بذكرها . ومثل ذلك أنه فى سنة ١٣٦٩، نقل عمودان من الرخام بواسطة الزحافات والروافع . وقد اتخذ الزجالون الشعبيون من ذلك

١- بدائع الزهور ٤ : ١٣٥ .

موضوعا لقرائحهم، ورسمت على المناديل صور تمثل المنظر . وبعد ذلك بعدة سنوات ، قطعت حجارة من مقالع جبل المقطم ووضعت على عربات تجرها الثيران ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الحجارة تسمي «حجارة العربات» . وفي سنة ١٥١٢ ، أمر السلطان بأن تنقل المكاحل (المدافع) التى تم صنعها إلى الصحراء شمالى القاهرة حيث يمكن تجربتها ، فوضعت على عربات سحبتها الأبقار . وعند مرور العربات بين الدكاكين فى الشارع الممتد من القلعة إلى مسجد ابن طولون ، تبين أن عملية النقل فيه شاقة ، وقد تمت بعناء شديد . ثم حدث بعد ذلك أن انهارت أرض الطريق وسقط مدفع كبير فى ممر تحت الأرض؛ وتم إخراجه بعد جهد كبير[١].

ومن الأشياء التى وجبت مقاومتها فى هذه الشوارع الحرارة والغبار، بحيث لزم رش كثير من الطرقات غير المرصوفة مرتين كل يوم. وقيل إنه فى بعض الأماكن التى لم تكن ترش ، كان الغبار يرتفع كثيفا كالدخان ، وكان من العسير القول ما إذا كان هذا مجرد غبار أو أنه حريق.

كانت مدينة القاهرة ذاتها بعيدة عن النيل، واستنفدت مشكلة نقل الماء جهود عدد كبير من الرجال والدواب . ويؤكد ابن بطوطة بأنه وجد فى القاهرة ١٢,٠٠٠ سقاء يستخدمون الجمال و ٣٠.٠٠٠ مكار يستخدمون البغال [٢]. ويقدر فريسكوبالدى عدد الجمال وغيرها من الحيوانات التى استخدمت لتوزيع الماء فى أرجاء المدينة بـ ١٣٠.٠٠٠ دابة. وفى بداية القرن السادس عشر ، لاحظ تريفيزانو أن ١٥.٠٠٠ جمل كانت تمضى إلى النيل مرتين يوميا لتحمل الماء اللازم لحاجات المدينة . ويبدو أنه لم تعامل دائما هذه الحيوانات برفق . ومن دلائل ذلك أن «ألف ليلة وليلة» تحاول أن تثير فينا الشفقة بقصة نحيب استرحام الحمار الذى حاول الفرار من المجتمع البشرى حتى لايسخَّر فى نقل الماء.

وكان من الضرورى أن يزود كل مسكن بالماء وكذلك الحمامات العامة، وأن تملأ المساقى التى أقيمت لشرب الحيوانات والأزيار الفخارية التى كانت توضع على قاعدة وتغطى بلوح من الخشب وعليه كوب للشرب. وكان يوجد فى الشوارع رجال يحملون قربا من جلد الماعز مدلاة

١- أنظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٠-٢٦٧ .

٢- رحلة ابن بطوطة : ٣٧ .

من أكتافهم، ولها فوهات من القماش . وكانوا يبيعون للمارة ما يحتاجون إليه من ماء يطفئ ظمأهم ، وكانوا يقدمونه فى كؤوس من الفضة أو النحاس . وكان بعض الأغنياء يؤجرون سقائين رغبة منهم فى تقديم هذه السلعة الأساسية صدقة للفقراء.

وكان السقاؤون المتجولون يحملون قربا من الجلد المصبوغ بالعصف . فقد ثبت أن ذلك يزيد فى متانة الجلد. ولايمكن استخدام جلد البغل أو أى جلد قذر متآكل. وكان على السقائين أن يأخذوا الماء من مناطق فى النيل بعيدة عن كل تلوث. فكانوا يصعدون فى النهر بصفة خاصة بعيدا عن مصارف الحمامات العامة، أو ينزلون مسافة طويلة أسفل النهر. وكان السقاء ، إذا استعمل قربة جديدة ، فإنه لايستخدمها لنقل الماء للاستعمال في البيوت ، بل كان يبيع الماء منها للطواحين وعصارات النبيذ ومضارب الآجر . وكان يعلق حول اعناق الحيوانات الحاملة لقرب الماء أجراس أو أطواق مصنوعة من الحديد أوصفائح نحاسية بحيث تنبه إلى اقترابها الضرير والسرحان والصغار فى الأسواق العامة.

ويقال أنه كان هناك عدد كبير من الباعة المتجولين الذين يبيعون الأفراخ الصغيرة بالوزن وليس بالعدد كما هى العادة فى البلاد. ومما أثار عجب الرحالين جميعا أنهم وجدوا فى مصر البيض يفقس «دون أية مساعدة من الدجاج»[1]. ويقولون أن هؤلاء القوم كانوا يستخدمون طريقة معينة لفقس الفراخ، فكانوا يضعون ألف بيضة أو أكثر فى أفران تحتوى على عدد من الرفوف، ويوجد فى الرف العلوى فتحة ، ثم توقد نار هادئة تحت هذا الفرن وتستمر على هذا النحو سبعة أيام، تخرج بعدها أعداد كثيرة من الفراخ وتجمع بعد ذلك فى صناديق ، وعند بيعها ، تكال بصاع بلا قاع يوضع فى سلة المشترى ثم يملاء بالفراخ حتى يمتلئ ، وعند ذلك يرفع الصاع . ولقد أثارت هذه العملية نوعا من التأمل الفلسفى عند الرحالة بريدنباخ وهو فى طريقه إلى بيت المقدس فقال :

بعد أن تفقس الفراخ بغير مساعدة الأم، كانت ترسل كالأغنام إلى الحقول مع راعى أو تباع فى السوق . والشئ الذى لايقبله العقل، رغم أنه صحيح ، هو أن هذه الطيور التى ولدت بواسطة فن الإنسان وصنعته كانت أكثر استئناسا من الطيور التى ولدت بالطريقة الطبيعية، وهى تتبع الإنسان تماما كما تتبع الفراخ العادية أمها.

* * *

١- الخطط ١ : ٢٦ .

لقد حفظ لنا الرحالة الأوروبيون أوصافا متناقضة عن منازل المدينة، ويفسر ذلك أن بعضهم تناول وصف القصور الغنية بينما وصف آخرون المساكن المتواضعة الفقيرة ذات الأسقف المسطحة المغطاة بالجريد. ولاشك أن المنازل الأكثر ثراء كانت أقل جودة من حيث البناء عن مثيلاتها فى أوروبة . وقد بلغت فى بعض الأحيان أربعة أو خمسة طوابق ، الجزء الأسفل منها مبنى من الحجر أو الآجر ، والجزء العلوى من الخشب الخفيف جدا والياف النخيل والجريد والطمى. وأسقف المنازل مسطحة بحيث يستطيع السكان أن يستروحوا فيها نسيم المساء البارد ، وكان بعض الناس ينامون عليها فى الصيف.

كانت واجهات المنازل بسيطة للغاية وجدرانها خالية من أى زخرفة . والحلية الأساسية فى الواجهة المطلة على الشارع هى المشربيات التى كانت تشكل بروزا فى الجدار الخارجى للبيت. وهى مصنوعة من عدد لايحصى من قطع الخشب الصغيرة المنحوتة ، ومرتبة ومركبة على نحو يكوّن أشكالا مختلفة . ومن ناحية عملية ، كانت هذه المشربيات «ترضى حب استطلاع من كانوا داخل البيت، دون أن تكشف أمرهم من الخارج نظرات الفضوليين». ولهذا ، خيم على منازل العصور الوسطى جو من السرية والغموض. ولقد قيل أن هذه البيوت حاولت بهذه الطريقة أن تخفى ثراءها الداخلى، ولكن لعل هناك سببا طبيعيا آخر يفسر بساطة المظهر الخارجى ، وهو ضيق الشوارع، إذ يستحيل على المرء أن يذهب بعيدا ليتمتع بالنظر إلى واجهاتها الغنية.

كانت بيوت كبار القوم تبدو من الخارج متواضعة ، عادية، عليها مسحة من الكآبة ؛ أما من الداخل ، فلامثيل لها فى فخامتها وثرائها . وكأنها كما يقول أحد الرحالة: «بيت الرحمن وأبواب السماء» . وكان يزين هذه المنازل زخارف غنية رائعة قد رسمت بألوان مختلفة دقيقة. هذا ، إلى جانب استخدام الرخام وغيره من الحجارة الملونة . ويبدو أنه ساد فى الشرق اعتقاد بوجوب اخفاء الجمال، كما كانت تحجب النساء فى الماضى، وتلف المومياء من قبل بأشرطة من النسيج .

أما غرفة الاستقبال ، فكانت مرصوفة بالرخام المتعدد الألوان ليكوّن أشكالا من الأزهار وغيرها من الزخارف . وكان يقوم فى وسطها نافورة أو نافورتان من الماء تبقيان مفتوحتين بالليل والنهار طوال فصل الصيف . ووضعت حول هذا الحوض الكبير فى أماكن متفرقة أوان مليئة بأزهار الموسم. وكانت هذه النافورة ذات الماء الجارى تعتبر جزءا أساسيا فى بيوت الأثرياء ، وتكاد تقابل المدفأة فى الغرب. وتغطى الأرض بسط، على الأقل عند الطرفين حيث

يوجد الديوان، وهو عبارة عن مصطبة ترتفع عن الأرض بمقدار قدمين ونصف، مغطاة بالسجاجيد الفارسية الثمينة والطنافس الحريرية المذهبة، أو بنسيج رفيع ينتهي بذوائب ذهبية. في هذا المكان، يجلس الناس القرفصاء على نحو ما هو مألوف في الشرق.

واشتمل المنزل الذى عاش فيه جان تينو فى مطلع القرن السادس عشر على :

ست غرف أو سبع مرصوفة بالرخام والمرمر وغيره من الحجارة القيمة، قد رصت بمهارة فائقة، كما غطيت الجدان بنفس الخامات ، بعد أن طليت بألوان ناصعة مثل الذهبى والأزرق وغيرهما . وقد فاقت مهارة الصانع روعة الخامات . ووجدت فى هذه الغرف نافورات ينبثق منها ماء بارد أو ساخن يجرى فى أنابيب مختفية . وعلى مقربة من هذا المكان تنمو أشجار ونباتات كثيرة للفواكه مثل الليمون بأنواعه والقرع العسلى والبرتقال والمشمش والكاسيا والتفاح . وكانت هذه الحدائق ترش كل صباح ومساء بماء أحضر من النيل بواسطة الثيران والخيول .

وغالبا ما كانت الجدران تغطى بالرخام إلى ارتفاع عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما يعلوه افريز بديع صنع أحيانا من البرونز المذهب المرصع بالقيشانى الرائع الجمال ، ويتكون السقف من دعامات خشبية تترك بينها مجار غائرة.

ومما أعجب به الرحالة الغربيون الأساليب التى استخدمت للتغلب على حر الصيف . فبالإضافة إلى أحواض الماء، فتحت فى السقف فجوات للتهوية تتجه نحو الشمال وتتصل بسرداب ضيق جدا يندفع الهواء عن طريقه بسرعة ليمتزج بالبرودة التى يخلفها الرخام والماء.

ويتلقى البيت القاهرى ضوءه من الفناء الداخلى وليس من الطريق . ونكاد نقطع بأن البيت بنى من الداخل إلى الخارج وأغلق أصحابه بعد ذلك المنافذ على الشارع . وكانت هذه المنازل من الراحة والبعد عن ضوضاء المدينة بحيث تسمح لسكانها بأن ينأوا بأنفسهم عن مشاغل أعمالهم وعن صخب المدينة، وأن ينعموا بسويعات قليلة من الهدوء والراحة . وهناك ، خلف جدران هذه البيوت المغلقة ، يشعر المرء بالسكينة فى عزلة عن مشاغل الحياة اليومية. وبالقرب من النافورة فى صحن الدار، يطيب للمرء أن ينعم بالتأمل الهادئ على صوت خرير الماء وشدو الطيور.

ولم تؤثث هذه البيوت بالطريقة التى ننظم بها بيوتنا الآن، فلم تشتمل مثلا على مطبخ ؛ ويذكر جميع الرحالة أن الأكل كان يجلب من الخارج، ويؤتى به معدا ومطهوا من المطاعم التى

كانت تنتشر فى المدينة . كما لم توجد كراس يمكن نقلها ، إذ يجلس الناس على أرائك مغطاة بالبسط والطنافس . ولم توجد أيضا حشيات بالمعنى المعروف الآن، وكان البساط كافيا . وهذا هو ما يعنيه جوبينو بقوله : «إن ما يسميه بعض الناس تقشفا كان يعتبر هنا غاية فى البذخ». وكانت أباريق الماء تحفظ فى كوة صغيرة ، كما أن عدد الأوانى النحاسية من أباريق وصوان وأكواب كان يتوقف على ثراء صاحب البيت. كما وجدت صناديق كثيرة مليئة بالحلى والخزف والسجاجيد النفيسة والوسائد ذات الأغطية المصنوعة بخيوط من الذهب والفضة . ومن أقيم ما اشتملت عليه ثروات هذه البيوت المنسوجات الثمينة ، ويدل على ذلك أنه فى فترات المحن كانت المنسوجات أول شئ يخبأ فى أماكن آمنة.

يهدف التصميم العام للبيت إلى ستر الحياة الداخلية للنساء، وأن يصون الحياة المنزلية من أعين الغرباء. وبسبب التعاريج فى مدخل البيت، أمكن ترك الباب مفتوحا . رمزا للكرم، ولايستطيع أحد من المارة أن يقتحم المنزل . ويؤدى هذا الدهليز الملتوى إلى صحن الدار . وأهم مكان فى البيت هو غرفة الاستقبال التى كانت خاصة بالرجال.

ومن الواضح أن المنازل بنيت بحيث تسمح بالمحافظة على بقاء النساء محجوبات . ومع ذلك، فليس صحيحا أن نظن أن النساء كن محرومات من كل حرية، فلعل القصص التى جاءتنا عن العالم الشرقى بالغت فى وصف أمور أخرى كثيرة، ولكنها صريحة تماما فى روايتها لألاعيب النساء. فكان النساء يخرجن ويقصدن الحمامات العامة- على سبيل المثال- وهى مسألة لايستهان بها. وكن يحضرن الأعياد والاحتفالات العائلية وحفلات الزواج والميلاد ، كما يذهبن إلى الحج ويحتشدن عند الأضرحة . ونستنتج من الطريقة التى نظمت بها منازل القاهرة وأثثت، أن رب الأسرة كان يراعى رأى زوجته . فالنساء هن اللاتى كن يتمتعن بفخامة البيت وبذخه ورونقه ، وكن ينعمن بجمال حدائق الزهور الداخلية .

ولابد أن النساء تمتعن بقدر كبير من الحرية إذا كان لنا أن تحكم من القيود التى فرضها دعاة الفضيلة من المتزمتين. فقد اعتقدوا أنه لايليق بالنساء أن يزرن المقابر ، ولا أن يقمن فى بيوت تطل على الخليج أو البرك ، بسبب المناظر التى يمكن أن يشاهدنها ، وللسبب نفسه ، لاينبغى للنساء أن يسافرن فى القوارب ، ولا أن يحضرن الاحتفال بالمحمل .

وحسب هذه المبادئ الصارمة ، لاينبغى أن تخرج النساء إلا عند الضرورة ، ويجب عليهن أن يرتدين أقدم ملابسهن . وكانت تغطيهن تماما عباءة تصل إلى الأرض . ولاينبغى أن يلبسن أجمل ملابسهن ويسرن فى خيلاء فى الشوارع. ويعتبر وجود النساء عند تجار المنسوجات

والحلى أو ابتسامهن عند الكلام معهم عملا شائنا . وكانت رؤية النساء فى الأسواق فى القاهرة أمرا مألوفا ، لدرجة أن أحد القضاة استنكر أن التجار حيوا بعض النساء من غير المسلمات ، فى ملابس غاية فى البذخ ، ظنا منهم أنهن مسلمات . وفى « ألف ليلة وليلة » تقع معظم المغازلات فى سوق الأقمشة.

من الناحية النظرية المحضة، كانت هناك ثلاثة أسباب فقط لمغادرة المرأة المنزل : ذهابها إلى بيت زوجها ، وحضورها جنازة والديها ، ودفنها عند موتها . ولكن فى الواقع، كان هؤلاء النظريون المتزمتون يعرفون جيدا أن كلامهم كان مجرد صيحة فى واد ، وأن النساء كن يذهبن كل أسبوع لزيارة ضريح سيدنا الحسين وضريح السيدة نفيسة.

وقد رأى فريسكوبالدى نساء القاهرة على هذا النحو :

ملابس النساء بصورة عامة مصنوعة من أقمشة جيدة النسيج، وملابسهن الداخلية مصنوعة من الخام، أو من أرقى أنواع الكتان الاسكندرى بالنسبة لأثرياء النساء. وتلبس بعض النساء ثوبا قصيرا من القطن يصل إلى الركبة، وفى هذه الحالة كن يلبسن فوقه نوعا من الرداء الرومانى ، وهن متحجبات تغطيهن الملابس، ولايرى منهن غير الأعين. وتضع نساء الأسر الكبيرة أمام أعينهن نقابا أسود من الموسلين السميك يحجب وجوههن عن الأعين بينما يسمح لهن بالرؤية الواضحة. ويلبسن فى أقدامهن أحذية بيضاء ذات رقبة قصيرة ، بينما تغطى أرجلهن جوارب طويلة وسراويل تصل إلى الكعب . وتطرز نهاية هذه السراويل بخيوط من الحرير أو الذهب أو الفضة، أو تحلى بالأحجار الكريمة أو اللآلئ ، حسب وضع السيدة فى المجتمع .

ويضيف تريفيزانو إلى ذلك بقوله :

لايظهر من جسم المرأة سوى الأيدى، وهذا من النادر أيضا. وعند ذهابهن إلى المدينة، كن يلبسن ثيابا بيضاء ويمتطين الحمير. وتشاهد أيدى بعض النساء وأظافرهن مطلية بالحناء . وهن ينفقن المال الكثير فى شراء الحرير والروائح العطرية من الأسواق .

(٦)

الأضرحة والأسواق

كانت الأسواق في القاهرة ، كما كانت في سائر المدن الشرقية، تمتد إلى ما لانهاية . وفي ذلك يقول المقريزى[١]:

والقصبة هي أعظم أسواق مصر، وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول أن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلي الرمل إلى المشهد النفيسي. ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لايكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة، تبهج رؤيتها، ويعجب الناظر هيئتها . ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن احصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون: يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن، والتي يوضع فيها : الجبن ، والتي تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التي تعمل تحت الجبن في الشقاف، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى والخيوط التي تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والافاويه وغيرها . فإن هذه الأصناف المذكورة ، إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل.

ويُصَفّ التجار أكوام الخبز وغيره من الأطعمة على الأرض، وكثيرا ما وجهت الالتماسات إلى المسؤولين ليمنعوا أولئك القوم من عرض بضائعهم في الأسواق العامة نظرا لأنهم يسدون الشوارع الضيقة ويتسببون في الأضرار بمصالح أصحاب الحوانيت .

ويوجد وراء باب الفتوح سور مسجد الحاكم بمآذنه المربعة التي تتفق هندسيا والأسوار المحيطة بها. ويذكرنا هذا المسجد بأعمدته القصيرة الغليظة بتصميم مسجد ابن طولون ،

١- الخطط ٢ : ٩٤- ٩٥ .

ويصف ماريلا مسجد الحاكم بقوله : « لم يبق منه سوى بقايا مذهبة تبعث على الحسرة ، وعقود ترتفع فى عنف نحو السماء الصافية ، وأعمدة قائمة مشوهة . وفي وسط هذا الدمار تجد قافلة قد حطت رحالها بعد أن هدَّها العناء الذى يحدثه الصراع بين الظل وحر الشمس اللافح ».

وفى داخل باب الفتوح ، توجد حوانيت القصابين وتجار الحبوب والخضر وغيرهم من الباعة، وهو أشهر أسواق القاهرة وأكثرها ازدحاما . ويقصدها الناس من كل مكان في البلاد ليشتروا جميع أنواع الخضر وشتى أصناف اللحوم من ضأن وبقر وماعز . وكان القصابون يلفون اللحم فى أوراق شجر الموز.

وغير بعيد من هذا المكان، يقع سوق المرحلين، وهى سوق اختصت ببيع ما يحتاج إليه فى ترحيل الجمال وكل شئ آخر يتعلق بأردية الابل. ويؤمها الناس من كل أرجاء مصر ، وخاصة قبل موسم الحج. فكل من أراد أن يعد مائة جمل أو أكثر فى يوم واحد ووجد مشقة فى تحقيق ذلك يمكنه أن يحقق غايته هنا نظرا لوفرة كمية المعدات اللازمة فى المتاجر ومخازن التجار.

وعلى طول الطريق من باب الفتوح إلى المسجد الأقمر، يباع الطعام، من لحوم نيئة ومطهوة وخبز وزيت وجبن ولبن وخضروات وأنواع التوابل المختلفة. كما وجد عدد كبير من المحلات حيث تباع الأطعمة المشوية والمحمرة ليلا ونهارا، وهناك، إلى جانب ذلك ، الطهاة المتجولون ، ليس فى هذا المكان فحسب وإنما فى شتى أرجاء المدينة. إذ يبدو أن سكان القاهرة قلما كانوا يعدون طعامهم فى البيوت، وكانوا يشترونه مطهوا معدا من المتعهدين وكبار الطهاة الذين انتشروا فى أنحاء المدينة وتخصصوا فى هذا النوع من العمل. فيقال أنه وجد عدد يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف طاه يتجولون فى شوارع المدينة ويحملون على رؤوسهم أفرانا موقدة عليها أوعية ساخنة أو لحم يشوى على السفود، يقدمونها ساخنة لمن يطلبها . ويضيف فريسكو بالدى أن الطهاة كانوا يجهزون الطعام فى أوعية نحاسية جميلة. ويقال أنه من المألوف أن يجلس أهل المدينة ويأكلوا فى الشوارع، مادين على الأرض رقعة من الجلد يضعون عليها وعاء يحتوى على طعامهم ويجتمعون حوله جالسين القرفصاء . وهكذا ، كان القوم يأكلون ما يشترونه من تلك المطابخ التى كانت مزودة بكميات وافرة من اللحم وخاصة الضأن والدجاج والأوز، وبكمية أكبر من الأرز والمقليات بالزيت . وبعض التفصيلات الأخرى تخبرنا :

إن الطهاة كانوا يقطعون اللحم إلى قطع صغيرة يضعونها فى السفود، كما نفعل نحن بصغار الطيور ، ثم يصفونها على أفران لا غطاء لها ، تنضج اللحم فى لحظات. وأحيانا

يشوون حملا كاملا وبعد نضجه يحمله رجل على كتفيه ويضع على رأسه منضدة متنقلا بها في الشوارع مناديا : «اللى عايز ياكل لحمة؟» ونظرا لعدم وجود فنادق تقدم الطعام، كان الغرباء مضطرين إلى الأكل حيث يكونون.

وإذا تابعنا السير في الطريق ، نرى ناحية اليسار الواجهة الضيقة للمسجد الأقمر بطابعها الحزين الخلاب. ولنقف قليلا نتأمل روعة ذلك البناء. قد لايروعك مظهره عند مقارنته بالأبواب الضخمة عند مدخل المدينة أو بالأبنية الجليلة التي أقامها المماليك والتي سنراها بعد قليل؛ ولكن هناك أكثر من سبب يدعونا للاعجاب به . فهنا تمكن العالم الأثرى من أن يحل مشكلات عدة تتعلق بتطور فن الزخرفة الاسلامية . أما بالنسبة للفنان ، فهو مثال للتعبير الهادئ والبساطة الأخاذة . وتعتبر هذه الجوهرة من أكثر أعمال الفاطميين جمالا .

وعلى مقربة من هذا المسجد، كانت تقوم سوق الشماعين، ترى بها أشرطة الاضاءة للمصابيح والمشاعل التي يحملها رؤساء دوريات الحراسة. والشموع الضخمة التي كانت تستخدم في المواكب. وبطبيعة الحال، لم تعد تصنع في ذلك الوقت الشموع التي كانت تثبت على مؤخر الدواب زمن الاخشيديين (كان راكبو الدواب مضطرين للتلفت خلفهم بصورة مستمرة للتأكد من موضع الشموع) . وكانت الحوانيت تظل مفتوحة إلى ساعة متأخرة من الليل، وأصبحت ملتقى المومسات اللاتى أطلق عليهن نتيجة لذلك اسم نساء الشماعين الفاجرات . وكن يرتدين ملابس زاهية الألوان ليسهل التعرف عليهن.

ويلى هذه المنطقة مباشرة ، من ناحية الشمال، تجاه باب النصر، سوق البزازين ، مكتظة بتجار الأقمشة ومن يتصل بهم من أصحاب الحرف ، مثل النساجين والحلاجين والصباغين والرفائين والخياطين والغسالين والكوائين والرسامين- وبعبارة أخرى ، كل من لهم علاقة بصناعة المنسوجات . وعلى مقربة منهم، كان هناك آخرون من أصحاب الحرف المتخصصة ، مثل أولئك الذين كانوا يصنعون الضبب التي برسم الأبواب ، وهي اقفال خشبية عجيبة بهرت الرحالة الأوروبيين . ويقول أحد أولئك الرحالة:

تصنع الأقفال والمفاتيح من الخشب فقط، بما في ذلك أقفال أبواب المدينة. والمفتاح يتكون من قطعة من الخشب يبلغ طولها نصف قدم وعرضها بوصة وهي في سمك الاصبع الخنصر ، ومثبت في طرفها ستة أو ثمانية مسامير من النحاس أو حتى من الخشب طولها حوالى بوصة واحدة. وعندما تقابل تلك المسامير مثيلاتها داخل القفل، ترفعها وينفتح القفل.

وكان يوجد بالقرب من هذا المكان، في القرن الرابع عشر، سوق العبيد، الذى نقل فيما بعد

إلى خان الخليلى الذى ذاع صيته وأصبح الرحالة يهتمون بوصفه ابتداء من القرن السادس عشر . هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع وأكثرهم كانوا عراة سوى قطعة من القماش تستر عوراتهم . ويقوم المشترون بفحص جميع أجزاء الجسم ليتأكدوا من سلامة ابدانهم ، كما يفعل المرء الآن عند شراء الخيول. «وكانوا يتحسسون العبيد بأيديهم بكثرة: فالأيدى تختبر سلامة عضلات الساق ، ورقة الجلد، وصلابة الصدر، وحجم قبضة اليد القوية». وكان يعرض خليط من النساء : التركيات واليونانيات والجركسيات والجورجيات والحبشيات. ونكاد نسمع بآذاننا نداءات النخاس وهو يردد بصوت مازح تلك العبارات الواردة فى كتاب «ألف ليلة وليلة» : «أيها التجار الأثرياء ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة، ولا كل ما أحمر لحما، ولا كل سمراء تمرة ... أيها التاجر كم تدفع لهذه الجوهرة الفريدة التى تفوق قيمتها جميع أموالك ؟ من يقترح العرض الأول؟ ».

وخلف المسجد الأقمر من ناحية الجنوب، كان هناك ذلك السوق الفسيح للدجاجين ؛ وكان يباع فيه من الدجاج والأوز شئ كثير جليل إلى الغاية. وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها. كما كانت تباع بها بكرة طيور المسموع من أصناف القمارى والهزارات والشحارير والببغا والسمان فى أقفاصها [١].

نصل بعد ذلك إلى حى من أمتع أحياء القاهرة وأكثرها ازدحاما ، وهو شارع بين القصرين، الذى ترجع تسميته إلى العصر الفاطمى. وكان فى ذلك العصر منطقة كبيرة خالية من المبانى والمنشآت ، تسع نحوا من عشرة آلاف جندى سواء من الخيالة أو المشاة. فكانت تقام فى هذا المكان المواكب والاستعراضات العسكرية. وبعد زوال الفاطميين ، حين سكن أمراء الأيوبيين وضباطهم القصور الخالية، تحول المكان إلى سوق للأطعمة ، بأنواعها المختلفة ، من لحوم وفطائر وفواكه وغير ذلك من ألوان الطعام. ومع ذلك ، فقد ظل مكانا ممتعا يحلو للنبلاء وعلية القوم أن يسيروا فيه فى المساء للترويح عن النفس ومشاهدة الأضواء المنتشرة المنبعثة من المصابيح والثريات . وكثيرا ما احتشد الناس لسماع ملاحم السير والقصص التاريخية أو لمشاهدة الألعاب المختلفة.

بعد ذلك ، أنشئ فى هذا المكان مجموعة من المبانى الرائعة، مما جعله يتحول إلى ما يمكن أن يسمى بمتحف حقيقى للعمارة . فهناك ، أولا ، مدرسة السلطان برقوق ، التى تلفت النظر

١- انظر الخطط ٢ : ٩٦ .

بجدرانها العالية ومأذنتها القصيرة الغليظة . وبعد ذلك بمائة سنة، قامت المبانى التى أنشأها السلطان قلاوون وابنه محمد. ومما يثير الاهتمام ، بوابة غريبة نعرف أنها كانت بابا لكنيسة للفرنجة أحضر من فلسطين ولم يؤخذ كغنيمة حرب؛ على أنه يدل على اختيار رجل ذى ذوق رفيع . وإذا ما يممنا شطر الشرق وعرجنا قليلا، نصل إلى ضريح الملك الصالح أيوب، خصم القديس لويس.

هذه المبانى التى ترجع إلى عصور مختلفة وتتميز بأساليب معمارية متباينة وتخدم غايات متفرقة ، تقف جميعها جنبا إلى جنب دون أن يشعر الإنسان بأى تناقض بينها، بل إنها لتكون معا نسقا واحدا . ولعل ذلك راجع إلى شدة الضوء واستقلال المبانى مما يسمح بتميز الأشياء عند النظرة الأولى. نحن هنا أمام مجموعة فريدة ومثيرة من المبانى التاريخية. ويزين المبانى الأربعة التى تكون الواجهة الغربية صفوف من النقوش التى تبعث فى نفس الزائر شعورا بسحر فن الكتابة العربية.

ووجد فى هذا المكان أيضا، عند بداية العصر المملوكى، سوق السلاح، حيث تباع القسي والسهام والدروع، ولكنه نقل فيما بعد إلى مكان قريب من القلعة.

ونظرا لتوسط هذا الموقع بين الأسواق على طول المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب، فقد وجد به عدد كبير من الصيارفة الذين اتخذوا مواقعهم فى هذه المنطقة. وتجد على مسافة غير بعيدة ، مصاطب سوق الصناديقيين حيث كانت تعرض الحلى . وهذه الصناديق الصغيرة مصنوعة من الحديد المتشابك وتحتوى على خواتم وأختام وأساور وخلاخيل.

وإذا استأنفت السير ، وجدت باعة الأمشاط والوراقين وصانعى الحلوى (الكعكيين) المزودين بكميات كبيرة من الفستق واللوز والزبيب . وإلى جوارهم ، يعرض المهاميزيون أنواعا شتى، من أبسطها المصنوع من الحديد إلى أفخمها المصنوع من الفضة أو الذهب الخالص . وكانوا يصنعون أيضا سائر أطقم الخيل. وعلى مقربة من هذه السوق، كان يقوم سوق السروجيين ، حيث تشاهد اللجم والسيور، وبصفة خاصة اللجم المصنوعة من الجلد المصبوغ بألوان مختلفة، منها البسيط ومنها المطلى بالذهب والفضة. وبعد ذلك تأتى متاجر باعة المنسوجات المستوردة التى كانت تستخدم فى أغراض الرياش والوسائد وبطانة السروج. وقد زاد الاقبال على تلك الأقمشة عن طريق الطبقة المتوسطة فى القرن الخامس عشر.

نأتى بعد ذلك إلى مبانى السلطان الغورى التى تكشف عن ذوق رجل محدث الثراء، إن جاز لنا أن نطلق على مملوك مثل هذا الوصف. فأعماله تمثل أسلوبا ينتمى إلى طبقة نبيلة

منحلة. فهناك تقليد ضعيف لأعمال فنية ترجع إلى عصور الاصالة السابقة . فهذا الفن الذى يمكن أن يوصف بالحذلقة الشديدة والمظهرية انتشر وأوشك أن يتخذ له قواعد مدرسة محددة. ويمكن أن نقول ، بعد مقارنة هذه الأعمال بسابقاتها ، أن صناع السلطان الغورى بالغوا فى أعمالهم محاولة منهم فى أن يخلفوا لنا نماذج من أسلوب وشيك الزوال. فرغم اتقان الزخرفة من ناحية الصنعة، فهى مجرد استمرار لما سبقها دون أن يكون لها أية شخصية قائمة بذاتها . وإن مقدرة الفنانين التى لايمكن انكارها لتكشف عن دراية بفنون الصنعة أكثر مما تدل على عبقرية خلاقة. فقد يسرنا ، مثلا دون أن يحركنا ، مظهر الكتابة الهزيلة التى تبعث على السخرية ، خالية من مظاهر الجدية والقوة. ويمكن تعريف عمل هؤلاء الفنانين الصغار بأنه مجهود محمود قام به تلميذ مجد ، ففنانو هذه الفترة يميلون إلى المبالغة فى التنميق بالنسبة إلى زخرفة قد استكملت تنميقها ، دون أن يدركوا أن فى البساطة جمالا أكثر.

وكان يقوم فى جوار الجامع الأزهر ، غير بعيد من هذا المكان، سوق الفرائين، وتباع فيه أنواع الفراء كالسمور والوشق والعمائم والسنجاب. فكان يستخدمها ، فى أول الأمر ، قواد السلطان وكبار الموظفين ، ثم استخدمها بعد ذلك ، فى نهاية القرن الرابع عشر ، نساء الطبقة الثرية.

وكان هناك فى هذه المنطقة أيضا سوق النجارين حيث تباع المحفورات الخشبية ومن أشهرها ، بطبيعة الحال، المشربيات. ولم يكن بمقدور هؤلاء الصناع الذين استخدموا أصابع أقدامهم فى العمل أن يصلوا بصنعتهم إلى تلك الدرجة من المهارة والدقة والسرعة لو أنهم استخدموا أيديهم.

وخلف الموقع الذى شيدت عليه مبانى السلطان الغورى، فى أوائل القرن السادس عشر ، وجدت فى القرن الرابع عشر سوق مزدهرة للكفتيين، لصناعة النحاس المكفت ، فهذه الأوعية الجميلة المطعمة بالذهب والفضة اشتملت على الصوانى والطاسات والاباريق والعلب الصغيرة والمباخر. ولايكاد يوجد بيت بالقاهرة أو مصر يخلو من عدة قطع نحاس مكفت . ولكن هذه الطبقة من الصناع كادت تنقرض تماما خلال القرن الخامس عشر.

وفى هذا الوقت، كانت المأذنتان قد تم تشييدهم بمهارة فائقة فوق باب زويلة ، وهو الحد الجنوبى للمدينة الفاطمية. وهما تكونان جزءا من المسجد الذى أقامه الملك المؤيد والذى سنعرض لمشرفاته الغريبة بعد قليل.

وكان باب زويلة أيام المماليك يكون مدخل السلاطين إلى المدينة من جهة القلعة ، وعليه كانت تعلق جثث المجرمين الخطرين، وخاصة أسرى الحرب، لتكون عبرة للناس . وهو فى ذلك يشبه شارع الاستراباد فى باريس الذى أقيمت عنده المقاصل .

على مقربة منه كان يقوم سوق الحلاويين ، وهم الذين تخصصوا فى عمل الحلوى الملونة والدمى المصنوعة من السكر، ولقد استاء المسلمون المتعصبون لمنظر بيع الحلوى على صورة الإنسان أو الحيوان أو الحصان أو الأسد أو القط. وروى المقريزى [١]:

ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل وعدة شقاف من خزف أحمر، فى بعضها لبن، وفى بعضها أنواع الأجبان، وفيما بين الشقاف الخيار والموز، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت أيضا لهم عدة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنها .

وفى سوق آخر مجاور كانت تباع الآلات الموسيقية مثل القيثارة والعود. وكان هذا المكان ملتقى أصحاب المجون والشخصيات الخليعة.

وكثيرا ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة، فذكر أحدهم فى أسلوب شاعرى : «إذا كان لى أن أصف ثراء هذه المدينة فلن يكفينى هذا الكتاب. إذ لو أمكن ضم مدن رومة وميلانو وبادوة وفلورنسة وأربعة أخرى من المدن بعضها إلى بعض، أقسم أنها جميعا لاتحتوى على نصف ثروة القاهرة». فقد تمتعت القاهرة بحركة تجارية ضخمة نظرا لأن البضائع تدفقت عليها من الهند والحبشة وشمال أفريقية وآسية الصغرى وأوروبة. فكنت ترى بها كميات كبيرة من الحرير، والاصباغ القرمزية، والماس المتلألئ ، والأحجار الكريمة، والزجاج الملون ذى النماذج الجميلة الذى كان يصنع فى دمشق فى ذلك الوقت، ثم هناك الأوانى الذهبية والفضية والنحاسية قد نقشت فى أسلوب شرقى بفن رفيع . ويمكننا أن نضيف أيضا أنه وجد فى هذه المدينة، كما هو الحال فى مصر بأسرها ، أنواع الورد والأزهار والفواكه المختلفة فى جميع الفصول وبأسعار معتدلة.

ويوجد فى أنحاء المدينة المختلفة أسواق متعددة وساحات عامة شيدت لأغراض التجارة، وهى التى تسمى «قيسارية»، وقد خصصت كل واحدة منها لبيع سلعة معينة. وبعضها يبيع الأشياء التى تجلبها القوافل من الحبشة مثل العقاقير والببغاوات والتبر. وقد كان هناك سوق خاصة لكل من الأحجار الكريمة والمنسوجات والأقمشة الثمينة وغيرها من المصنوعات ، وعلى

١- الخطط ٢ : ٩٩-١٠٠ .

المرء إذا أراد شراء شئ أن يعرف السوق المختصة به ومحتوياتها من البضائع . وبعض الأسواق مكشوف وبعضها مسقوف ، وكانت هناك قوانين مرعية تحكم هذه الأسواق وقد اعتقد الجميع أنها بلغت مستوى عاليا في القاهرة. وكنت تجد في كل واحدة من هذه الأسواق جمعا غفيرا من الناس لأنهم اعتقدوا أنها المكان الأصلح لهم في المزايدة الجماعية، كما هي الحال في بورصات باريس وانتويرب وليون.

ويقول سيمون سيجولي:

تزخر المدينة بكميات كبيرة من البضائع من شتى الأنواع، وخاصة التوابل بأنواعها، التي تجلب من بلاد الهند عبر المحيط والبحر الأحمر ، ثم تفرغ عند ميناء الطور الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلا أسفل جبل سيناء. وهناك وفرة من السكر الأبيض كالثلج ، والصلب كالحجر ، وهو خير سكر في العالم. وتنقل البضائع ، بعد تفريغها في هذا الميناء ، على ظهور الجمال عبر الصحراء إلى القاهرة. وتستغرق هذه الرحلة ثلاثة عشر يوما لايرى أثناءها بيت أو جدار ، وكل ما يرى هو الجبل والسهل الرملي تغطيه الحجارة والحصى.

ويحلو للمقريزي أن يطيل الحديث في وصف رخاء أسواق القاهرة، ولكن كل جملة من كلامه تنتهي بعبارة من الأسى تذكر بزوال معظم الدكاكين . وكم تألم مؤرخنا للمنظر الحزين الذي كانت عليه الأسواق في أيامه- في منتصف القرن الخامس عشر- حين أصبحت «أوحش من وتد في قاع»[1]. وهو تصوير صحيح . فنحن نلاحظ ، في القرن الخامس عشر . انحطاط جميع الصناعات الفنية واختفاء بعضها تماما مثل صناعة الزجاج المطلي بالميناء والنحاس المطعم. ومع ذلك، فمن المفيد أن نورد وصف ليو الافريقي (وهو أبو الحسن الوزان الفاسي) الذي لايخلو من حماسة في الربع الأول من القرن السادس عشر:

تمتلئ المدينة بالصناع والتجار، ويكثرون بصفة خاصة في شارع يمتد بين باب النصر وباب زويلة: فهنا يقيم أكثر نبلاء القاهرة . ويوجد في هذا الطريق عدد من المدارس التي تثير الاعجاب بسبب حجمها وارتفاعها وزخرفتها، كما يوجد أيضا عدد من المساجد الفسيحة الرائعة الجمال. وهناك أيضا عدد من الحمامات العامة التي بنيت بفن معماري رفيع.

ويضم أحد الأحياء ، وهو الذي يسمى بين القصرين، محلات تبيع اللحم المطهو، ويبلغ عددها ستون محلا تقريبا، مزودة بأطباق من الصفيح . وفي محلات أخرى ، يباع ماء الزهر

١- الخطط : ٢ : ٩٦ .

وماء الورد المعروف بطيب مذاقه ، ولهذا تقبل عليه الأسر الكبيرة. وهو يحفظ فى قنان من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية. وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوروبة . وهناك نوعان من هذه الحلوى، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر. ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهة الذين يبيعون الفواكه السورية التى لاتنمو فى مصر مثل الكمثرى (الاجاص) والسفرجل والرمان. ويتخلل هذه الحوانيت محال أخرى تبيع المقليات من البيض والجبن . وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض أصحاب الحرف الرفيعة . وبعد ذلك توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان الغورى ؛ وبعد المدرسة توجد «فنادق» المنسوجات (أى أسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت . ففى الفندق الأول، تباع الأقمشة الأجنبية من أحسن الأنواع، مثل تلك التى تأتى من بعلبك ، وهى نسيج قطنى رفيع، والمنسوجات التى تأتى من الموصل، وهى التى حازت إعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها علية القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وعمائمهم. وبعد ذلك تأتى الفنادق التى تباع فيها أجمل الأقمشة الايطالية مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأوكد لك بأننى لم أر مثيلا لها فى إيطالية حيث صنعت . وبعد ذلك تأتى فنادق المنسوجات الصوفية التى تأتى من جميع الدول الأوروبية، فأقمشة من البندقية وميورقة وهولندة . وهناك مكان لبيع الأقمشة المصنوعة من وبر الجمال. وشيئا فشيئا نصل إلى باب زويلة، حيث يوجد عدد كبير أيضا من الصناع . وبجانب هذا الطريق ، نرى فندقا يدعى خان الخليلى حيث التجار الفرس، ويبدو هذا الفندق كقصر عظيم، فهو مرتفع البناء متينة ويتكون من ثلاثة طوابق. وفى الطابق السفلى يستقبل التجار زبائنهم ويبيعون البضائع الثمينة. ولاتجد فى هذا الفندق إلا أثرياء التجار الذين يبيعون التوابل والأحجار الكريمة والأقمشة الهندية الثمينة.

وعلى الجانب الآخر من الشارع الرئيسى ، يوجد جزء خاص بتجار الروائح العطرية الذين يبيعون الزبد والمسك والعنبر واللبان الجاوى. وتوجد هذه المنتجات بوفرة بحيث أنك إذا أردت أن تشترى درهم مسك من تاجر أراك مائة رطل منه . وهذا أمر عجيب . والمنطقة التى يباع فيها الورق المصقول الجميل تتاخم هذا الشارع الرئيس ، ويبيع تجار هذا الورق أيضا الأحجار الكريمة. وبعض الأشخاص يحملونها من محل إلى محل لعرضها للبيع لأكثر من مزايد .

ويقع أيضا على هذا الطريق الرئيس منطقة صانعى الذهب ، وهم جماعة من اليهود الذين تتركز فى أيديهم ثروة كبيرة. وفى منطقة أخرى ، اتخذ تجار الأشياء المستعملة سوقا لهم .

وهم يبيعون أقمشة من أنواع ممتازة باعها لهم أهل المدينة وعلية القوم فيها. ولن تجد هنا ملابس واردية مستعملة وإنما قطعا من أفخر المنسوجات وأقيمها .

ويضيف ليو الافريقى بعض التفصيلات التى تصور لنا مجتمعا متماسكا كأعضاء الجسم الواحد:

وإذا ما حدث وأنتج أحد الصناع عملا جميلا ماهرا لم ير مثيل له من قبل ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت، يصحبه الموسيقيون فيما هو أشبه بموكب النصر، ويعطيه كل شخص بعض المال . ولقد رأيت فى القاهرة أحد هذه المواكب التشريفية لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق. كما رأيت أحد أعمال القوة العظيمة قام بها أحد السقائين الذين يسيرون فى الشوارع حاملين قربا من الجلد تتدلى من أعناقهم. فقد تراهن مع شخص آخر أن يحمل قربة عجل مملوءة بالماء تشد إليه بسلسلة من الحديد. وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبعة أيام متتابعة من الصباح إلى المساء يحمل هذه القربة التى علقت بسلسلة على كتفه العارى، ففاز بالرهان ، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع السقائين فى القاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء.

(٧)
الأعياد والأفراح

فى المناسبات السعيدة، تدق الطبول من القلعة . فتتزين المدينة بالرايات والبنود لمدة سبعة أيام، ويسمح للأهالى بالانطلاق التام فى مرح جنونى.

وتعلق فى هذه المناسبات الرايات والحلل والمناديل والأقمشة الثمينة الملونة والبيضاء ، وكذلك الستور من المخمل والحرير من النوافذ فى عرض لامثيل له من الروعة والجمال. وبعض الناس يعرضون الدروع والقسي والخوذ والزرديات وحتى الحلى. وهذا يذكرنا بعبارة فرواسار : «وأعلم أن شارع سان دنيس بطوله كانت تزينه أعداد لاحصر لها من الرايات من الأقمشة الحريرية الثمينة حتى ليحسب الإنسان أنها لاتكلف صاحبها شيئا أو أنه فى الاسكندرية أو فى دمشق» . ويمكننا أن نضيف إلى هذا القول عبارة الرحالة ابن بطوطة: «شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير . وبقوا على ذلك أياما». كما يزينون داخل متاجرهم بالأقمشة . وينشرون الحرائر على الأرض فى الطرقات . وفى أماكن متفرقة من المدينة، تقام أحواض مليئة بالشراب الذى يقدم للمارة.

وعلى طول طريق الموكب، تقام المنصات التى تعزف عليها فرق موسيقية من طبالين وزمارين ومغنين . ومن أسطح البيوت والشرفات تنطلق زغاريد النساء المرحة التى يصفها لنا بيير بيلون على النحو التالى: «يفتح الفم إلى أقصى اتساعه فينبعث منه صوت نشاز ؛ ويحرك اللسان بين الأسنان ثم يسحب إلى الخلف نحو سقف الحلق فتنطلق صرخة حادة تشبه صيحات القرويات اللاتى يبعن اللبن فى باريس ».

وفى مناسبات معينة مثل الانتصارات الحربية أو قران بعض الأميرات أو كبار رجال الحاشية ، تشارك الأسواق فى المهرجانات ، فتتزين الدكاكين بالرايات وتضاء طوال الليل . وتبدو المدينة متوهجة بسبب العدد الذى لاحصر له من المصابيح التى تضاء فى كل مكان . فهناك الثريات الزجاجية الكبيرة، وآلاف القناديل والمصابيح ذات الضوء الخافت ، والصواريخ. ولعل المسؤولية الكبرى فى هذه الاحتفالات تقع على عاتق أغنياء طوائف الحرف.

فنحن نعرف أنه فى زمن الخلفاء الفاطميين، كان تجار الجواهر ورجال المصارف وصانعو الذهب وتجار المنسوجات مسؤولين عن تعليق الرايات والبنود على طول طريق موكب الاحتفال .

ولنعرض الآن لوصف أحد هذه الاحتفالات . يسير على رأس الموكب ثلة من الجنود وتتبعهم جوقة من الموسيقيين، بعضهم ينفخ فى الأبواق النحاسية التى يقابل أصواتها القوية صوت الناى الخافت الحزين المنبعث من جوقة أخرى. وعلى مسافة منهم يسير المنشدون ، يرددون الأشعار على ضربات الدفوف الخفيفة.

وكان هناك تنظيم رسمى دقيق في تحديد أماكن الضباط الذين يسيرون أمام السلطان ، فكان النظارة يرونهم يتتابعون على هذا النحو : عشرة من الجنود المشاة شاهرين البلط، يتبعهم على صهوتى جوادين أشهبين اثنان من الغلمان، يلبسان طاقيتين صفراوين وثوبين من الحرير الأصفر المطرز بالذهب ، وتخفق فوقهما رايتان مشغولتان بالذهب مثبتتان خلفهما عند نهاية سرج من الجلد المغطى بالذهب أيضا، حتى ليحسب الإنسان أنه من صنع صائغ . كانت هذه بعض شارات السلطنة ، ولذلك يحملها اثنان من أهم رجال الدولة. وبعد ذلك يظهر السلطان ممتطيا صهوة جواد مطهم يلمع معدنه تحت أشعة الشمس وقد غطيت عنقه بقطعة من الحرير الأصفر المشغول بالذهب . وتمثل ملابس السلطان بقعة قاتمة فى وسط هذا اللون الفاقع . فتغطى رأسه عمامة من الحرير الأسود تتدلى عذبتها على كتفيه كشرائط العلم. ويلبس السلطان رداء طويلا من الحرير الأسود له أكمام واسعة. والنسيج كله من لون واحد بلاتطريز . ويتدلى على جانبه الأيسر سيف معلق من حزام يدور حول كتفه الأيمن. ويرفع أحد كبار رجال القصر فوق رأس السلطان شارة أخرى من شارات السلطنة ، وهى مظلة صفراء مطرزة بالذهب عليها كرة ذهبية قد وقف عليها طائر ذهبى. ويسير على يمين السلطان شاب طويل القامة متين البنية ذو مظهر عسكرى يحمل فى يده هراوة أو عصا ضخمة تنتهى بطرف مذهب . ويحمل أمام الجنود عدد من الأعلام المصنوعة من الحرير الذى تتخلله بعض خيوط ذهبية . ويوجد فوق ساريات الأعلام قطع من الفراء .

فى يوم ٣٠ نيسان (أبريل) سنة ١٥٠٠، ذهب السلطان ليرأس مأدبة الافطار فى شهر رمضان. فامتطى صهوة فرس أبيض يغطيه سرج أبيض فضى، بينما ارتدى ملابس من الحرير الأبيض وحذاء أبيض ينتهى بمهماز مغطى بطبقة من الفضة؛ وحتى نعل حذائه كان من الجلد الأبيض، وغطاء رأسه من الصوف الأبيض . وكان ذلك فى الواقع زيا غريبا ؛ وتشاءم الناس من ملابسه البيضاء ، ثم حدث فعلا أن عزل السلطان بعد ذلك بقليل.

وكان الموكب يضم فى بعض الأحيان كبار الأسرى، بعضهم يمشى وبعضهم يجلس على دواب ، وجميعهم مقيدون بالسلاسل . ويسير خلفهم الجنود حاملين أسلاب الحرب التى غنمت من الأعداء ، وخاصة طبولهم التى مزقت وراياتهم التى تحمل منكسة إلى أسفل رمزا للهزيمة.

وقد بقى لنا وصف يوم لاحتفال كبير حين عرض أمير من أسرة على دولات الذى كان قد أسر بعد معركة ضارية . حدث ذلك فى شهر آب (أغسطس) سنة ١٤٧٢، أيام الحر القائظ . أمر السلطان بأن يدهن باب النصر وباب زويلة باللون الأبيض وأن يزينا بشعار السلطان . وزينت المدينة بالرايات الجميلة ، وأصبحت فى حالة من التطلع نظرا لأن كل شخص كان يريد رؤية الموكب عند مروره. وبلغ إيجار منزل يقع على طريق الموكب أربعة دنانير أشرفية ، وإيجار مكان فى دكان دينارا أشرفيا . وأركب الأمير المهزوم فوق حصان ، لابسا رداء أسود وعمامة ضخمة ، وحول رقبته طوق من الحديد متصل بسلسلة ثقيلة أمسك بها ضابط راكب إلى جانبه. وكان هذا الموكب المهيب يتكوّن من الضباط الذين اشتركوا فى الحملة، تتبعهم وحداتهم. وازدحم جميع سكان القاهرة لرؤية هذا المنظر ، بينما اصطف المنشدون بين باب النصر وأسفل القلعة . وسمعت دقات الطبول عند القلعة، واصطف الطبالون والزمارون أمام الدكاكين. وقدم الأسير إلى السلطان داخل القلعة، ثم نزع عنه رداؤه والبس رداء أبيض وأركب جملا، ووضع حول عنقه طوق من الحديد تتصل به عصا من الحديد تنتهى بجرس. أما أقاربه الذين شاركوه مصيره فقد وضعوا عراة الرأس والجسم فوق جمال . وخرج الأسرى من القلعة على هذه الحال، يسير أمامهم منادون يصيحون : «هذا هو جزاء كل من خرج على السلطان» . حتى إذا وصلوا إلى باب زويلة ، شنق الأمير وعلق فى وسط الباب، وظل جسده هناك يوما وليلة، ثم أنزل ولف فى كفن ودفن فى شمال المدينة . وبعد ذلك رفعت الرايات والزينات.

وهناك أيضا موكب الرؤية الذى يتألف من الفقهاء الذين يخرجون للتأكد من ثبوت رؤية هلال شهر رمضان. وكان هذا الموكب يحاط بعدد كبير من القناديل المستديرة والمشاعل والشموع . وتضاء أيضا أمام الحوانيت الشريات والشموع والمباخر التى تنتشر منها رائحة زكية.

ومن أحب المشاهد لنفوس الجماهير موكب المحمل «وهو هودج رائع مزين أجمل زينة ، يوضع فوق جمل قوى، وهو مظهر من مظاهر السيادة . فإن منظره الشامخ كان يبدو بارزا وسط القافلة المصرية عند عبورها الجزيرة العربية . وكان حكام الحجاز ينحنون أمامه ، كما يخلى له سائر القوافل الطريق ليمر».

ويوم دوران المحمل يوم مشهود . وهذه صورة عن كيفية الاحتفال به :

يركب قضاة القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب الجياد ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة. ويقصدون جميعا باب القلعة، فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة، ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم. ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء. ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتى القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم.

وسرعان ما يحدث هرج ومرج ؛ فترى جنودا وقد ارتدوا ملابس تنكرية مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح، وكان هؤلاء يسمون عفاريت المحمل، إذ كانوا يرتكبون كثيرا من الحماقات، حتى إن الحكومة قررت منع هذه العروض . وبعد أعوام كثيرة فى نهاية القرن الخامس عشر ، كان يتقدم المحمل ثلة من حملة الرماح فى ملابس حمراء ويلعبون لعبة الحرب .

وأحيانا يدعى الناس للمشاركة فى حفلات القران والختان التى كانت تزين تزيينا جميلا مبالغا فيه بالمشاعل ، وترش الروائح العطرية ، ويحرق البخور، وتمد موائد حافلة فى هذه الاحتفالات . ومثال ذلك ما حدث فى شهر آذار (مارس) سنة ١٥٠١ حين خرجت أميرة إلى القلعة محمولة فى هودج مطرز بالذهب، يتقدمها قواد الحرس ، والامناء، وحرس الشرف فى ملابسهم الرسمية ، وحاكم المدينة ، وقائد الجيش، والمشرف على حريم السلطان ، وكبار موظفى الدولة ، ورئيس الخصيان . واشتملت معية الأميرة أيضا على مائتين من السيدات من نساء الضباط والموظفين . وحمل على رأس الموكب الجهاز الذى تقدم به السلطان والذى اشتمل على ملابس وطاس وإبريق من البلور وخيمة مطرزة بالذهب .

وبعض مواكب الجنازات كانت تستلفت النظر بمن فيها من الندابات المحترفات وقارعى الدفوف.

وإلى جانب مواكب النصر، هناك مواكب أخرى للتشهير . فالمجرمون الذين يخالفون القانون العام كانوا يوضعون على ظهور الجمال ويطاف بهم فى شوارع القاهرة . وعادة ، يتجمع جمهور غفير على طول الطريق، بينما تصدر من النساء أصوات الاستنكار ضد هؤلاء المجرمين عند مرورهم . وأحيانا يجلد المجرم علنا ويوضع على حمار ويطاف به عارى الرأس والجسد فى شوارع المدينة.

وكان البدو الذين يعاقبون بسبب جرائمهم يعاملون معاملة قاسية . فالرجال منهم توضع حول رقابهم أطواق من الحديد، بينما يقيد النساء والأطفال بالحبال .

وكان الملحد الذى يدان بارتكاب جريمة ضد الدين يوضع على جمل ويطاف به فى شوارع المدينة، ثم يشنق بالقرب من مدرسة الملك الصالح أيوب فى منطقة بين القصرين .

وكانت تدهن وجوه النساء المنحرفات ذوات السمعة السيئة بالهباب ويطاف بهن فى الشوارع على حمير .

* * *

يبدو أنه لم تشيد أبنية خاصة للملاهى الجماعية . فقد أخذ العالم الإسلامى الحمامات العامة مثلا عن الحضارات السابقة ، ولكنك لاتجد فى أى مدينة إسلامية أبنية مشيدة لأسباب التسلية الشعبية كالمسرح أو السيرك .

ولكن منظر وقوف الناس فى الشوارع مشدوهين فى تطلع لايتحدد بالمكان أو الزمان، وقد وصلتنا أوصاف عديدة من بلاد مختلفة غير مصر عن الجماهير التى تلتف حول مدرب يلاعب دبه أو قرداتى يرقص قروده على دقات الطبول. وهذه الجماهير تستثار لرجل مجذوب مخادع أو لصانع معجزات دعي، ويذكر كتاب العرب القدماء أخبار رجال يستطيعون ابتلاع السيوف والرمل والحصى والزجاج المجروش ، وآخرون يمكنهم تحطيم الأشياء أو اخفاءها ثم يعيدونها إلى حالتها الأولى أمام أعين المتفجرين المشدوهين . وذكر ابن خلدون- دون أن يؤكد صحة الخبر- أنه سمع أن بالقاهرة من يتخصصون فى تعليم الطيور الكلام وتدريب القرود حتى يمكنها القيام بألعاب سحرية تعتمد على خفة اليدو دون أن يفطن إليها النظارة، ومنهم من يعلم الناس الغناء والرقص والسير على الحبل المشدود فى الهواء .

ولاريب أن هناك بعض الأماكن التى تصلح أكثر من غيرها لأسباب التسلية الشعبية، وتؤمها طبقات الشعب المختلفة. فنسمع أن سفلة الناس من الماجنين والعاهرات كانوا يبحثون عن التسلية فى باب اللوق، حيث يوجد السحرة والبهلوانات والرجال الذين يدربون الجمال والحمير والكلاب والقرود على الرقص، والمصارعون الجوالون والمنجمون الذين يجلسون وراء صناديق من الرمل ، ولاعبو الأراجوز «الذين يحركون دمى من وراء ستار»[١]. ثم هناك أيضا المبارزون المهرة الذين يستطيعون استخدام جميع أنواع الأسلحة ، وخاصة الهراوة، والموسيقيون الذين يرافقون منشدى أغانى الشجو والشجن .

١- انظر الرحلة العياشية لعبدالله بن محمد بن أبى بكر العياشى ١ : ١٥٥ (ط. فاس ، ١٣١٦هـ) .

وينافس مدربو الحيوان الحواة والبهلوانات . وفي ذلك يقول بيير بيلون:

ويوجد بين العرب في القاهرة عدد كبير من القرداتية والطبالين ؛ وأثناء لعبهم يقرعون طبلة بأصابعهم، ويغنون على صوت هذه الطبلة (وهي الرق) المركب فيها عدد من الحلقات النحاسية ، ويمسكونها باليد اليسرى ويدقونها باليد اليمنى. وهم على جانب كبير من المهارة في تعليم ألاعيب القرود لأنواع مختلفة من الحيوانات ، يعلمونها للجدى أو غيره. من ذلك أنهم يضعون سرجا على ظهر الجدى ويركبون عليه القرد ، ويعلمون الجدى القفز كالحصان . وهم يعلّمون الحمار كيف يمثل أنه يموت وأن يتمرغ في الأرض وأن يصطنع أنه يرفس القرود التي تتسلق ظهره. ولديهم أيضا من الحيوانات المدربة أنثى القرود، ولكن قلما ترى لأنه لايمكن الاعتماد عليها. ومعهم أيضا نوع الغوريلا المكممة ، وهي وديعة حسنة التدريب إلى درجة أنها تتنقل من شخص إلى آخر ممن يشاهدون الطبال وهو يلعب، وقد يدها دلالة على طلب النقود، ثم تحمل النقود وتسلمها لصاحبها .

أما الحواة [١]، فكانوا يسيرون في الطرقات حاملين أكياسا (تعرف بالجراب) مليئة بالثعابين التي كان في استطاعتهم أن يجعلوها تقوم بحيل غريبة مختلفة. فعن طريق النفخ ، يمكنهم أن يجعلوها تصطنع الموت؛ وبالنفخ مرة ثانية يحيونها ويجعلونها تقوم بأعمال شيطانية. وقد رأى أحد الأفراد رجلا يأخذ حية بيده المجردة من قاع قدر كبير يحتوى على عدد من هذه الثعابين ، ثم عرى رأسه ووضع الحية عليها ثم غطاها بطاقيته؛ ثم رفعها ووضعها على صدره ولفها حول عنقه دون أن تصيبه الحية بأى أذى . وبعد ذلك وضع دجاجة بالقرب من الحية ذاتها فلدغتها وماتت بعد دقائق قليلة. وفي نهاية العرض، تناول الرجل الحية من رقبتها وأكلها مبتدئا بالذيل، حتى أتى عليها بأسرها في سهولة ودون أى امتعاض كشخص يأكل جزرة أو عودا من الكرفس .

وكان للبهلوانات جمهورهم ؛ ومنهم من رؤي فوق بركة ماء في القاهرة عندما تسلق الحبال وسار عليها بظهره مقيد اليدين معصوب العينين. وكان هناك آخر شد حبلا بين أعلى طبقات القلعة وإحدى المنارات على مسافة ميل ومشى على الحبل مستخدما يديه ورجليه ، وهو تارة يطلق نفطا، وتارة يرمي بقوس قوى كان بيده. ولما وصل إلى نصف الحبل، ألقى نفسه. فصاح

١- أنظر أخبار الحواة والبهلونات في زبدة كشف الممالك: ٣٢ .

القوم كلهم، وظنوا أنه سيهشم إلى أشلاء. ولكن تلك لم تكن سوى حيلة بارعة ، إذ كان ممسكا في يده بطرف حبل دقيق مربوط بعناية إلى الحبل المنصوب، فتعلق به وصعد.

يظهر الكتّاب العرب نوعا من الاستياء عندما يتحدثون عن الأعمال الفظيعة التى كانت ترتكب علانية فى عيد رأس السنة القبطية (وهو عيد النوروز) . فكان يختار أمير يسمى أمير النوروز ، يطوف هو وأتباعه على ظهور الجمال بمنازل كبار رجال المدينة. وكان يرسل فى استدعاء أولئك الذين يدعى أنهم فى منطقة نفوذه ليمثلوا أمامه . وهو يفعل هذا كله على سبيل المزاح، ويقنع بالميسور من الهبات.

ويجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة ، وبأيديهم الملاهى، وترتفع الأصوات ويشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفى الطرقات، ويتراش الناس بالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالأقذار، وإن غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فإما أن يفدى نفسه وإما أن يفضح [١].

وفى وقت معين من السنة لايمكن تحديده، كان الناس يتقاذفون بالبيض المسلوق، ويضربون المارة بالسياط. وحاولت الحكومة عند نهاية القرن الرابع عشر أن تحدد هذه الاحتفالات فى مناطق معينة؛ ولكن هذا النوع من المرح استمر على طول القنوات والبرك ونهر النيل وبعض الشوارع الفسيحة. ويتفق الجميع على أن القوم كانوا يسرفون فى لهوهم ومرحهم فى يوم رأس السنة، وأن أشياء كانت ترتكب وراء حدود الوقار والاحتشام، وشاع المجون والخلاعة فى غير ضابط . ونادرا ما مر ذلك اليوم دون أن يقتل عدد من الأفراد.

وكان الاحتفال بوفاء النيل (عيد الشهيد) من أبهج الأعياد عند المصريين . فعند إعلان أن النهر قد بلغ أعلى منسوب، يتجمع أهالى القاهرة- حسب ما يذكر المقريزى[٢]- «وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر. ولايبقى مغن ولامغنية ولاصاحب لهو ولا رب ملعوب ولابغى ولامخنث ولاماجن .. إلا ويخرج لهذا العيد، .... وتصرف أموال لاتنحصر ، ويتجاهر هناك بما لايحتمل من المعاصى والفسوق».

١- الخطط ١ : ٢٦٩ .

٢- الخطط ١ : ٦٩ .

ويؤكد الرحالة الأوروبيون صحة ما يذكره مؤرخنا العربى اليانس ، فيقول تريفيزانو:

لقد فتح الخليج، إذ كانت العادة أنه عندما يبلغ فيضان النيل منسوبا معينا يرسل السلطان اثنين من كبار موظفيه مع أتباعهما إلى حدود المدينة لفتح الخليج وترك الماء يغمر الأرض. ويخرج جمهور كبير من الناس فى هذه المناسبة، التى كانت أجمل أعياد السنة. فتقفل جميع الدكاكين ويبدو على الناس جميعا فرح عظيم وهم يشاهدون الماء يتدفق إلى الخليج.

وبعد ذلك بعدة أعوام، كتب ليو الافريقى فى حماسة مماثلة يقول:

يقام فى القاهرة فى الأيام الأولى من الفيضان احتفال كبير. وتسمع فيه ضجة كبيرة من الصياح والموسيقى حتى يظن أن المدينة قد انقلبت رأسا على عقب. فتتخذ كل أسرة لنفسها قاربا تزينه بأرق الأقمشة وأجمل السجاجيد، وتتزود بكمية من الطعام والحلوى والمشاعل التى تضاء بالشمع. وينتقل جميع السكان إلى القوارب، ويمتعون أنفسهم بقدر ما يستطيعون. ويشارك السلطان نفسه وسائر الأعيان وكبار الموظفين فى هذا الاحتفال ؛ فيذهب إلى خليج يقال له الخليج الأكبر يحيط به سد. وهناك يتناول السلطان فأسا ويحدث صدعا فى السد، ويفعل سائر معية السلطان الشئ ذاته بحيث ينهار الجزء من السد الذى يحجز الماء. عند ذلك، يندفع النيل بعنف إلى الخليج، ومنه ينساب إلى القنوات الأخرى فى الضواحى والمدينة المسوّرة . وتصبح القاهرة نتيجة لذلك فى هذا اليوم أشبه بمدينة البندقية، فمن الممكن أن تنتقل بقارب بين جميع أرجاء مصر وأقاليمها . وتستمر الاحتفالات سبعة أيام وسبع ليال، بحيث أن ما يكسبه التاجر طوال السنة ينفقه فى هذا الأسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والموسيقيين.

كانت جزيرة الروضة المواجهة لمصر القديمة مركزا للهو والنزهة، حيث وجدت حدائق ومنتزهات كثيرة قصدها أهالى القاهرة ومصر القديمة للشراب والطعام والمتعة. وكانت تقام هناك مهرجانات ليلية على ضفاف بركة الرطلى التى كانت تضاء بأنوار وهاجة ، فيهرع نحوها الناس ويزدحمون على الطريق ليشاهدوا ذلك المنظر . وكانت تقدم للناس عروض مختلفة مثل تمثيليات خيال الظل أو الحلقات الغنائية . وبعبارة أخرى، كانت ليالى حافلة بالملذات التى جذبت جمهورا كبيرا.

وفى سنة ١٤٧٦، أسس حى من أمتع أحياء القاهرة ، وكثيرا ما أعجب به الرحالة فى العصور التالية. كان قبل ذلك مجرد سهل ملحى قاحل تتخلله بعض الكثبان، حيث نمت بعض أشجار التمر حنة والصمغ العربى. وأصبح المكان تدريجا خاليا ومهجورا ومهملا. فى هذا

الوقت، قرر أحد كبار موظفى دولة المماليك ، ويسمى أزبك، أن يشيد هناك حظيرة لجماله. وعند انتهائها ، خطرت له فكرة انشاء منزل له فى ذلك الموقع ، فبنى عددا من الغرف وردهة للاستقبال ومقصورة . وأحضر عددا من الثيران والمحاريث لازالة الكثبان التى فى الموقع، وحفر بركة وأحاطها بمنتزه . وسرعان ما حذا حذوه أثرياء أهل القاهرة وأخذوا فى بناء بيوت فخمة هناك . وأقبل الناس على الاقامة فى هذا الحى الذى أطلق عليه اسم مؤسسه وظل إلى اليوم يسمى الأزبكية .

وحين يبلغ النيل أعلى منسوب له، كان الخليج يفتح رسميا ويفيض الماء إلى بركة الأزبكية. يقام فى هذه المناسبة احتفال كبير يحضره كبار الضباط وإعداد غفيرة من الناس. وإلى جانب المأدبة الرسمية، كانت تطلق الصواريخ ، وتسير القوارب الكثيرة فى البركة. ويخبرنا مؤرخ عربى[١] بأنه كانت تقام احتفالات كبيرة تنفق فيها على الشراب أموال كثيرة بجنون .

ويقدم لنا رحالة متأخر هذا الوصف لبركة الأزبكية :

أنها عبارة عن سهل يقع فى تجويف على شكل صدفة بحرية تحيط بها من كل مكان المنازل الفاخرة . ومع أن المنازل زادت من جمال الموقع ، فإن المكان ذاته يكوّن منظرا متنوعا خلابا. فليس هناك منظر أكثر جمالا من هذه الأرض التى تكوّن حوضا كبيرا يمتلئ بالماء مدة ثمانية أشهر، ويصبح حديقة مشرقة طوال الأشهر الأربعة الأخرى. ففى شهر أيلول (سبتمبر)، يستطيع المرء أن يركب قاربا فيها، وفى شهر نيسان (أبريل) ، تتحول إلى أرض خضراء تغطيها الأزهار. وعندما تغطيها مياه الفيضان ، تسير فيها قوارب شراعية مذهبة ، يركبها أفراد من علية القوم فى المساء . وعلى شواطئ البركة ، يزدحم نظارة كثيرون يلتمسون الهواء العليل والراحة من حرارة الشمس . وعندما ينحسر الماء، تتزين الأرض بجمالها الطبيعى، فترى بها أشجار النخيل والتمر حنة ، وأنواعا شتى من الخضرة والفواكه التى تكوّن جميعا أجمل منظر متصور . هذه حدائق مسحورة حقا، فهى تنبت فى المكان ذاته الذى كانت تسير فيه القوارب قبل ذلك بأشهر قليلة.

لم تقتصر الاحتفالات على النيل وبركة الأزبكية على عرض الصواريخ بل عرضت أيضا الأضواء الرائعة التى وصفها الكتّاب العرب. وقد استمر هذا التقليد لأن فن الاضاءة بلغ درجة عالية من الاتقان. فكانت الأضواء تشكل فى صورة القلاع والقصور وكذلك المعارك. وكتب فى ذلك رحالة أوروبى:

١- هو المقريزى : انظر الخطط ١ : ٦٩ .

كان على واجهة كل منزل شكل معين؛ بعض هذه الأشكال يمثل أجسام الحيوان، وبعضها الآخر على شكل مربعات على طراز الأرابسك ، على نحو ما هو مشاهد فى تصميم السجاجيد العربية . والريح لاتطفئ هذه المصابيح التى تستمر مشتعلة طوال الليل. وكان باستطاعة المرء أن يرى على النهر سفينتين كبيرتين تحملان هرمين مرتفعين من الخشب تغطيهما تماما مصابيح قريبة من بعضها البعض . ونظرا لأن النيل كان مرتفعا جدا، فقد كانا على مستوى ضفتى النهر ويمكن رؤيتهما من عدد من المواضع إلى أسفل القاعدتين. وكانت مصابيح هذين الهرمين تتغير بصورة مستمرة. كان بعضها يهبط بينما يحل محلها مصابيح أخرى بسرعة كبيرة ؛ وآنا آخر تتحرك من جانب آخر. وقد نتج عن هذه التغييرات التى تمت بدقة كاملة مناظر ضوئية رائعة. ولايستطيع أحد ممن يراها أن يدرك أنها كانت متصلة بروافع صغيرة أو أنها اشتملت على رجال داخل الهيكل يحركونها . وغير بعيد من الهرمين وجد قارب ثالث حمل قصرا صنع من الألعاب النارية وملئ بالقذائف والصواريخ ، بحيث أنها شكلت منظرا خلابا.

ويخبرنا ليو الافريقى أنه كان من عادة سكان القاهرة أن يحتشدوا فى ساحة الأزبكية كل يوم جمعة بعد الخطبة والصلاة ، لأنه كانت فى هذه الضاحية بعض مظاهر اللهو غير البريئة، كتلك التى تقدمها الحانات والنساء ذوات السمعة السيئة . وكنت ترى فى هذه الساحة كثيرا من أهل التفنن والتسلية، وخاصة أولئك الذين يعرضون رقصات الجمال والحمير والكلاب. وهناك رجال يتبارزون بالسيوف أو بالعصى ، وآخرون ينشدون ملاحم فتوح العرب لمصر. كما كثرت أعمال الجنون والاحتيال والابتذال التى وجد فيها الناس بعض التسلية.

(٨)

المنشآت المدنية

سبق لنا أن تحدثنا عن بعض المبانى الدينية، وسوف نرى غيرها ، ولكنا نريد الآن أن نتناول المنشآت التى كانت تخدم أسباب الحياة المدنية بصورة عامة. ونظرا لأن معرفتنا بالماضى ناقصة ، فإننا ندرك إلى أى حد تتعرض دراستنا للعصر الإسلامى الأول فى مصر للزلل . لقد خلفت لنا المبانى القديمة من أعمال الحفر الغائر ما يكشف عن جميع جوانب الحياة اليومية، فنحن مضطرون إلى أن نقصر جهدنا على جمع معلومات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك فى قراءتنا ، ثم التوفر على تفسيرها بكل ما نملك من معرفة . ولكن ربما كنا فى ذلك حريصين أكثر مما ينبغى على معلومات جزئية، فنخطئ باستنباط قواعد عامة من هذه الحالات الاستثنائية . وقد سبق لفولتير أن قال : «كثيرا ما تؤخذ الحالة الاستثنائية على أنها قاعدة عامة». وفيما يتعلق بالحياة الخاصة أو الحياة فى الأسواق، فنحن لانملك سوى رواية أو حتى آراء مضطربة لكتّاب متزمتين ينتقدون أشد النقد الأعمال التى أثارت استياءهم ونقمتهم . وهذا غير كاف فى الواقع .

يقول أحد كتاب القرن الخامس عشر[١] :

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجليلة والمناظر البهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس والخانات المشحونة بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان والترب التى تحكى القصور ، مالايمكن حصره .

نظمت المدينة لتخدم أغراض التجارة بحيث أنه وجدت مبان مخصصة لخزن البضائع وأخرى لاقامة التجار. وحسب العصر التاريخى، أو ربما حسب الهدف من البناء ، أطلق على محطات القوافل هذه الاسم الفارسى «خان» ، أو الإسمان اليونانيان «قيسارية» أو «فندق» ،

١- الخطط ١ : ٣٦١ .

أو الاسم العربى «وكالة» ، الذى اشتق منه فى العصور الوسطى كلمة okelle . وقد أنشئ رسميا فى العصر الفاطمى فى القرن الثانى عشر «دار الوكالة» ، لاقامة التجار وخاصة السوريين والعراقيين الذين يحضرون إلى مصر لأغراض التجارة.

ويصف لنا الفندق فى نهاية القرن الخامس عشر أحد الرحالة بهذه الكلمات :

فى القاهرة فنادق كبيرة ، تشتمل على شارع تنتشر فيه صفوف من الدكاكين ذات ثلاثة أبواب أو أربعة، تقفل وتحرس كل ليلة . وتجد فى هذه الفنادق جميع أنواع البضائع . ويجلس التجار والصناع قريبا من دكاكينهم، يعرضون عينات من سلعهم . وإذا ما أردت شراء شئ له قيمته أو أهميته ، صحبوك إلى مخازنهم ليعرضوا عليك ما لديهم من روائع . ورغم أنه قد يبدو مستحيلا، فإن كل واحد من هذه الفنادق يضم أكثر من ألف مخزن من هذا النوع . وليس هناك شئ فى الدنيا، حتى أكثرها تفاهة ، إلا وتجده فى فنادق القاهرة.

وقد اكتسبت بعض هذه المنشآت شهرة خاصة. فنحن نعرف مثلا ، عن طريق «ألف ليلة وليلة» ، خان منصور حيث يباع العبيد.

وكانت هذه المنشآت تبنى بطريقة موحدة . فالبناء العام مربع الشكل يحيط بفناء كبير مرصوف ، وله رواق ذو عقود تعلوه شرفة . ويشتمل الطابق الأرضى على الحواصل أو المخازن، وفى الطابق الذى يعلوه غرف أو، بمعنى أدق، حجرات صغيرة كقلل الرهبان ، ليس بها شئ غير الجدران ، وكان النزلاء يقومون بفرشها وإعداد وجباتهم فيها. وللبناء باب واحد شبيه بباب قلعة . والهدف من هذا النظام هو حماية النزلاء من أن يعتدى عليهم أثناء الفتن. ولقد عمل كل شئ لتشجيع التجارة وحماية البضائع ، فهى خير وسيلة لتحقيق الرخاء الاقتصادى . وهناك فرق واضح بين محطات القوافل، أو الأسواق المسقوفة ، وبين الأسواق العادية. ففى الأسواق تعرض البضائع فى صف واحد وتباع ، أما فى محطات القوافل الكبيرة فيوجد عدد من الأروقة المسقوفة، ويمكن أن يرى الصناع أثناء عملهم فى حوانيتهم .

وهناك خان من نوع خاص عند مدخل المدينة شمالى باب الفتوح ، سمح للمسافرين بالنزول فيه مجانا . ونظرا لموقعه فى ظاهر المدينة، فقد تحول إلى مستشفى للمرضى بأمراض معدية. وهناك خان آخر استخدم كمصرف أودع فيه التجار صناديق المال المملوءة بالذهب والفضة . ولكن نهاية هذه المؤسسة كانت حزينة؛ فقد استولت الحكومة على الودائع عندما كانت مصر تستعد لمواجهة غزو تيمورلنك . وفى الحى نفسه، كان هناك خان قوصون أو وكالة قوصون

الذى استخدمه التجار السوريون لخزن بضائعهم مثل الزيت والسيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب . وكان فندق دار التفاح، بالقرب من مسجد المؤيد، أشبه بوكالة كبيرة للفواكه على اختلاف أنواعها . كما وجد خان آخر كانت تستخدم ايراداته لفدية أسرى الحرب . واشتمل على اثنى عشر حانوتا، وخمسة حمامات ، وثمانية وخمسين مخزنا ، وست غرف كبيرة ، وفناء وخمسة رباع ، وخمسا وسبعين حجرة للنزلاء ، وخمسة حمامات فى الطوابق العلوية . ثم ازداد التخصص، فأصبح أحد هذه المبانى وكالة باب الجوانية، يستقبل ما يرد من صنف متجر الشام فى البحر، وما يرد بالبر من تلك البلاد كان يدخل به إلى وكالة أخرى، هى وكالة قوصون .

وأكثر الأسواق المسقوفة التى يذكرها المقريزى - وقد أمكن تحقيق مكان تسع عشرة من اثنتين وثلاثين- موجودة فى قطاع يشبه مثلثا متساوى الاضلاع ، رأسه يصل جنوبا إلى باب زويلة وقاعدته خط شمالى يمتد بين ضريح السلطان الغورى إلى الجامع الأزهر. وقد اختصت هذه الأسواق ببيع جميع أنواع المنسوجات من صوف وكتان وأقمشة شعبية وحرير ثمين وشورة العروس. ولازال اسما سوق العنبر وسوق العصفر يدلان بوضوح على نوع سلعهما. ومن الأسواق الأخرى ما ضمت صناع الأخفاف والسهام والصناديق . وكان هناك فى جوار ضريح السلطان قلاوون خمس أسواق مسقوفة ، وسبع أخرى بالقرب من مسجد الحاكم .

ولدينا فكرة عن الأسماء التى أطلقت على الأسواق فى منتصف القرن الخامس عشر بفضل ما يذكره المقريزى[١] من أن فى القاهرة: سبعا وثلاثين قيسارية، وتسعة عشر فندقا ، واحد عشر خانا، وثلاث وكالات .

زادت المدينة الإسلامية فى عدد الحمامات التى أخذتها عن الحضارات القديمة دون أى تغيير فى خطة بنائها : فهناك غرفة الملابس والاستراحة، وحمام بخار، وفى بعض الأحيان غرفة متوسطة الحرارة . ولعب الحمام دورا مزدوجا ، صحيا ودينيا ، فى جميع البلاد الإسلامية. وقد أورد لنا الطبيب عبد اللطيف البغدادى ، الذى كتب فى القرن الثانى عشر، وصفا لحمامات مصر، فقال:

١- الخطط ٢ : ٨٦-٩٤ .

وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا، ولا أتم حكمة ، ولا أحسن منظرا ومخبرا . أما أولا، فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين زاويتين إلى أربع زوايا وأكثر من ذلك، يصب فيها ميزابان ثجاجان ، حار وبارد. وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع، فإذا اختلطا فيه، جرى منه إلى الحوض الكبير. وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض، وسائره فى عمقها ، ينزل إليه المستحم ، فيستنقع فيه. وداخل الحمام مقاصير بأبواب . وفى المشلح أيضا مقاصير لأرباب التخصص ، حتى لايختلطوا بالعوام، ولايظهروا عوراتهم . وهذا المشلح بمقاصيره حسن القسمة، مليح البنية . وفى وسطه بركة مرخمة ، عليها أعمدة وقبة، وجميع ذلك مزوّق السقوف ، مفوف الجدران ، مبيضها، مرخم الأرض بأصناف الرخام، مجزع باختلاف ألوانه، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج، وهو مع ذلك كثير الضياء، مرتفع الاذاج ، جاماته مختلفة الألوان، صافية الأصباغ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دارا لجلوسه ، وتناهى فى ذلك، لم تكن أحسن منه [١].

وفى نهاية القرن الخامس عشر، كتب بريدنباخ :

ذهب جماعة منا إلى الحمامات؛ إذ توجد فى هذه البلاد أحواض فى غاية الجمال والبذخ ، مزينة بالفيسفساء وأنواع مختلفة من الرخام . فالعرب يقبلون بشغف على هذا النوع من الرياضة ، وهم فى غاية المهارة فى تدليك أعضاء جسم المستحم .

عرفت مصر المستشفيات قبل مجئ العرب ، ويقال أن هذا النوع من المنشآت وجد أيضا فى الفسطاط منذ بداية تاريخها . ولم نتحدث عنها فى شئ من الاسهاب بسبب عدم توفر التفاصيل . ولكن الخدمات الطبية العامة ابتدأت فى عصر أحمد بن طولون . فكان الجمهور الذى حضر صلاة الجمعة فى مسجده من الضخامة بحيث لزم وجود طبيب لمساعدة من يحتاج إلى علاج بين المصلين. وجاءت الأموال للمستشفى التى شيدها من إيراد السوق المخصصة لبيع العبيد السود، ومن مصادر أخرى شبيهة بذلك . ولم يسمح للجنود بالعلاج فى هذه المستشفى. وكان على المرضى الذين يدخلون المستشفى أن يخلعوا ملابسهم وأن يسلموها وما معهم من نقود لأحد موظفى المستشفى الذى كان يسلمهم إيصالا عنها. ثم يرتدون ملابس

١- الافادة والاعتبار ١٨٣- ١٨٥ = (٤٥) (ط. لندن) .

خاصة ويستلقون على أسرة ، ويعطون الغذاء والعلاج اللازم مجانا . وعندما يستطيع المريض أكل رغيف من الخبز ودجاجة ، كان يصرح له بمغادرة المستشفى ؛ فترد له عندئذ ملابسه ونقوده . وكان السلطان يزور المستشفى يوم الجمعة من كل أسبوع ، ليتأكد بنفسه من توفر الامدادات وحسن قيام الأطباء على المستشفى ، ويسأل المرضى والضعفاء والمصابين بأمراض عقلية .

ثم أسس الاخشيديون كذلك مستشفى. أما الفاطميون ، فرغم ما نعرفه من شدة اهتمامهم بتعليم الطب، فإنه لم تصلنا أى أخبار عن المستشفيات فى عصرهم .

وحوّل صلاح الدين أحد القصور الفاطمية إلى بيمارستان (مستشفى) . وعيّن فيه أطباء، وأطباء عيون وجراحون ومدير للمستشفى . ويجب أن نذكر أن المؤرخ والطبيب المشهور ابن أبى أصيبعة تلقى تعليمه هناك . ويقول ابن جبير [١]:

ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان ، البيمارستان الذى بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تاجرا واحتسابا، وعين قيما من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير، ومكنّه استعمال الأشربة واقامتها باختلاف أنواعها . ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى. وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبازاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المريضات، ولهن أيضا من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد، اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلهم بما يصلح لها .

أما بيمارستان قلاوون، فهو أهم ما أنشئ فى القاهرة من هذه المبانى. فهو بناء عظيم فخم، يمكننا أن نتصوره فى سهولة لما نعرفه عن مقبرة السلطان . ويقدر من عدد الناس الذين دخلوا وغادروا البناء أن أربعة آلاف مريض كانوا يعالجون يوميا بالمستشفى فى القرن الرابع عشر . وكان كل مريض عند مغادرته للمستشفى يعطى هبة مالية وكسوة، كما قيل أن الطعام كان يعد بعناية فائقة . ولايتردد أحد الرحالة المغربيين من ذلك العصر فى القول أن الأثاث نافس ما بقصور السلاطين فخامة واتقانا . وكان كل من يعمل فيها متقنا عمله، وجميعهم،

١- رحلة ابن جبير : ٢٦ (ط. بيروت)، و٥١ (ط. أوروبة) .

دون استثناء ، من الأطباء إلى العاملين، كانوا يقدرون مسؤولية أعمالهم. وتتضمن الوثيقة التى انشأت هذا الوقف هذه الأفكار السامية[١]:

إننى أقرر أن خير فرصة يمسك بها الإنسان وخير أعمال الخير هى تلك التى توفر الراحة للآخرين. ينبغى على الإنسان أن يحقق السعادة للرجل الفقير حين يمرض عن طريق توفير المسكن والعناية الصحيـة، الباهظة التكلفة . ويجب أن يبتدأ بالأكثر فقرا بين المرضى والبائسين والضعفاء والمحتاجين والمساكين .

وقد أنشئت هذه المستشفى لعلاج المرضى من المسلمين، رجالا ونساء ، مقيمين أو عابرين من جميع البلاد والأقاليم، دون تمييز بسبب الأصل أو الدرجة ، ومهما كان المرض الذى يشكو منه المريض ، سواء كان بسيطا أو خطيرا، ظاهرا أو مختفيا ، جسميا أو عقليا . وكان الفقراء من المرضى، رجالا ونساء ، يقيمون بالمستشفى حتى يتم شفاؤهم . كما كان هناك استعداد لتوزيع الأدوية والعقاقير الطبية للمرضى الخارجيين . وكان يقسم المرضى حسب فئات معينة: فجعلت أواوين للمرضى بالحميات وغيرها، وجعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجراحة ، وقاعة لمن أفرط به الإسهال. ونجد فى بنود نظام هذا الوقف فقرات غير متوقعة، مثل تلك التى تبيح شراء مراوح من جريد النخيل لراحة المرضى فى فصل الصيف .

كان الرباط أول الأمر وحدة لحراسة الحدود مكونة من محاربين . وكانت هذه المؤسسة فى القرن الرابع عشر تؤوى أفراد ممن ليست لهم موارد ولا أسر. ونحن نعرف أن أحد المنازل كانت تعتزل فيه النساء المطلقات اللاتى رغبن فى حياة التأمل بعيدا عن عالم الحياة اليومية قبل الزواج مرة ثانية. وتحت تأثير الحركة الصوفية ، أصبح الرباط أشبه بدير للمتصوفة ، ولكن الاسم العادى الذى أطلق على هذا النوع من الأديرة هو «خانقاه» . وأشهر خانقاه فى مصر كانت تؤوى أفراد طريقة صوفية.

تعنى كلمات «دير» و«راهب» معنى محددا فى المسيحية . ولهذا ينبغى تجنب أى سوء فهم بالنسبة لهاتين الكلمتين . ونظام التصوف الاسلامى لايمكن تشبيهه بنظام العزلة الصارم

١- هناك ترجمة فرنسية حرفية لنص هذا الوقف فى كتاب :

Histoire des Bimaristan , par Ahmed Issa Bey Le Caire, 1928 .

الذى وجد فى الأديرة المسيحية. فعلى خلاف المسيحية، لم يعتبر الاسلام الجسد مجرد رداء حقير ، ولم يزدر الحياة على الأرض. ويشبه التصوف الإسلامى إلى حد بعيد الطبقة الثالثة فى المسيحية، فى أن أفراد هذه الطبقة لايرفضون تماما الحياة المادية. وكما فى الطبقة الثالثة ، تباح العضوية لجميع الناس. وينبغى أن يكون ذلك واضحا، لأنه لاتوجد كهانة فى الاسلام . وتختلف نظم الخانقاه حسب النصوص الواردة فى وثيقة الوقف. وبعض الخوانق قبلت المتصوفين المتزوجين ، الذين لم يقيموا ، بطبيعة الحال، فى الخانقاه .

وقبل أن نشير إلى بعض حالات التطرف التى كانت ترتكب، يجب علينا أن نذكر الفقرة التى أفردها ابن بطوطة للحديث عن خوانق القاهرة[١]:

وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق، واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم من الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم فى الطعام أنه يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة، لايشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان فى اليوم. ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى ، من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . هكذا عاش الصوفية وهم أعزاب . وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به ، وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن، ويذكرون . ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق. ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

فى العصر المملوكى ، أصبحت الفرق الصوفية قوة سياسية تحسب لها الحكومة حسابا. ولهذا كان السلطان يعين رؤساءها حتى يمكن أن يحتفظ بشئ من الإشراف عليها. وضاق

١- رحلة ابن بطوطة : ٣٧-٣٨ .

سائر رجال الدين والشريعة، مثل أساتذة المدارس والقضاة ورجال الافتاء، بهؤلاء الصوفيين الذين كثيرا ما كانوا من أصل أجنبى. وما نعرفه عن الصوفيين جاءنا عن طريق انتقاد هؤلاء القوم، ولهذا يجب أن نأخذ آراءهم بحذر شديد. فسخروا من أولئك الصوفيين الذين ادعوا أنهم ينصتون فقط إلى قلوبهم، بعد أن يسرفوا على أنفسهم فى حلقات الذكر، ليدركوا الحب الإلهى. وأكثر ما خشى من جانب الصوفيين هو أن يتمكنوا من بسط نفوذهم على الطبقات الشعبية ، الذين يجب المحافظة عليهم بصفة خاصة تحت سيطرة الحكومة. وقد وصلتنا أخبار بعض الحوادث ، منها ما حدث فى سنة ١٤٩٦، حين ثار المتصوفة في إحدى الخوانق ضد رئيسهم، وهو كاتب معروف، فمزقوا أرديتهم والقوا بها فى حوض ماء للتوضؤ ، وأوشكوا أن يعتدوا على رئيسهم . ولكن المؤرخ الذى أورد هذه الحادثة يقول: «واعقب ذلك اضطرابات تحتاج روايتها إلى وقت طويل».

لم تكن مصر هى البلد الوحيد الذى ترك فيه الرهبان أو المتصوفة رسالتهم الدينية واتجهوا نحو استثارة الجماهير ، الأمر الذى أدى أحيانا إلى صدام مع السلطات المدنية . وهناك العبارات القاسية المعروفة التى قالها الكاردينال بيير دميان عن بعض الرهبان الايطاليين : «أنهم جماعة من نساك المدن، متوحدين فى الأسواق العامة ومترهبنين في الدنيا ، يحاولون التسلط على الجماهير، تحت ستار الرهبنة». وقد ازداد نفوذ الفرق الصوفية فى الواقع فى العصر المملوكى، وبدأ يتخذ مظهرا خطيرا. وليس من الانصاف طبعا أن نستنتج أحكاما مطلقة من الآراء القليلة التى يجب أن ننظر إليها بعين الاعتبار. ولكنه من الغريب أن نرى عددا من كبار الكتّاب المتدينين حملوا فى سخرية على هؤلاء الرجال، ذوى الأسمال البالية الفاضحة والتصنع الرخيص ، الذين أرادوا أن يخلعوا رداء الحياء المرعى فى كل بقاع الأرض. وقد سدد ابن خلدون أحد سهامه نحو سكان الخوانق حين قال عنهم [1]: «... من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، يشترون بها الجاه ليجيروا به على الله». فلم يصوموا ولم يصلوا إلا حين يضطرون إلى ذلك، وأسرفوا فى جميع الملذات المباحة، ولم يلتزموا إلا بالواجبات التى إن خالفوها خرجوا عن مسلك التصوف . ولم يكلفوا أنفسهم قطعا عناء تدبر روح القوانين.

كان للمنشآت الدينية مثل المدارس والمساجد والخوانق مظهر خيرى أيضا، وذلك لأن الهبات التى كانت تقدم لهذه المؤسسات الدينية مكنتها من أن توزع الغذاء والكساء المجانى.

١- التعريف بابن خلدون : ٢٧٦ .

على أن أعظم أعمال البر جميعا هى انشاء سبيل لسقيا الماء. وقد قال أحد الكتاب الفرنسيين من ذلك العصر: «إن عظمة أى شعب يجب أن تقاس بمقدار ما يعمل من أجل الحصول على الماء». ويتفق هذا القول مع حديث شريف منقوش على سبيل فى القاهرة: سئل الرسول صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ، قال : «سقى الماء» [1]. والماء فى الشرق الأوسط ضرورة حيوية، ولعل هذا هو السبب في وجود نافورات فى أكثر البيوت فى العصور الوسطى. وأقام أهل البر للفقراء أسبلة عامة. وقد أمد هذا العمل الصالح أهل المدينة بماء للشرب، كما أنه- ولعل هذا هو الأهم - أمدهم بماء للتوضؤ . ولهذا أبيح استخدام هذه الأسبلة مجانا لعامة الناس. وكان يقوم على تزويدها سقاؤون . وبواسطة الامتصاص ، يندفع الماء خلال أنابيب نحاسية ، ويشرب المارة من أكواب مثبتة فى السبيل بواسطة سلاسل . ومما قاله أحد الرحالة فى نهاية القرن الرابع عشر : «إن كثرة الأسبلة الموجودة فى المدينة لدليل رقيها» . وكانت تلحق أول الأمر بمبان أخرى، مثل المدارس والخوانق . ولكن بعد ذلك ، فى العصر المملوكى، أصبح السبيل بناء مستقلا لايخلو من رونق ، ذا أحواض واسعة وشبابيك نحاسية (يمد المار يده منها ليشرب). وألحق بالسبيل ، فى الطابق العلوى، كتّاب للتعليم الأولى.

وفى القرن الخامس عشر، لم يبق فى المدينة متسع من الأرض الفضاء سوى النزر القليل . ونتيجة لذلك، كان من الضرورى أن يصغر حجم المبانى العامة التى بنيت عن سابقاتها . فبنيت مدارس أصغر حجما ، كما أزيل منها الفناء الأوسط المكشوف . وأصبح يغطى البناء بأسره سقف تتخلله فتحة تسمح بدخول الضوء نهارا . وبطبيعة الحال، لم يعد هناك مجال لاقامة المدرسين والتلاميذ فى هذه المبانى؛ وعلى هذا، لم يعد هناك فرق ظاهر- ابتداء من القرن الخامس عشر - بين المدارس والمساجد . فهناك مصلى مستطيل الشكل؛ وقلّ حجم الإيوانين الجانبيين إلى مجرد تجاويف، والشئ الوحيد الذى يذكرنا بالفناء الأوسط القديم هو اختلاف ضئيل فى مستوى الأرضية.

١- Repertoire d'Epigraphie Arabe, XVI , No . 6217 .

(٩)

الجبانات العظيمة

تقع الجبانات ، وهي المدافن الفسيحة، في ضواحي القاهرة من ناحية الغرب.

وكانت أول الأمر جنوبي القلعة . وقد ذكر ابن جبير أنه يوجد [١]:

بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء ، وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله عن جميعهم .والبسيط المذكور مسنم كله للعيان على مثال أسنة القبور دون بناء. ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة ، يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء. والاجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر . ولكن اللجوء إلى القرافة والاقامة بها يناسب كلا من الرجل الصالح والشخص الفاسد : فأنت واجد هناك كل ما تبحث عنه. فالعزلة فيها تسر الناسك، بينما يحتمى بها المارقون من القانون .

وكانت تحدث فى ذلك المكان معجزة وصلنا خبر عنها ابتداء من القرن السادس عشر ، حين كتب باومجارتن يقول: «فى ظاهر المدينة، على ضفاف النيل ، شاهدنا مسجدا؛ وقيل لنا أنه عند اقامة الصلاة فيه، يخرج الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة . وبعد ذلك يختفون . ويعرف كل شخص فى القاهرة هذه الحقيقة». وبعد أعوام عديدة ذكر أجريبا دوبينييه هذه المعجزة فى كتابه «تراجيديات» Tragiques .

وقد رأى الرحالة المغربى ابن بطوطة[٢] الجزء الجنوبى من القرافة فقط ، فقال:

وهم (يعنى أهل القاهرة) يبنون بالقرافة القباب الحسنة، ويجعلون عليها الحيطان، فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت، ويرتبون القراء يقرأون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان. ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم، ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل .

١- رحلة ابن جبير : ٢٤ (ط. بيروت) .

٢- رحلة ابن بطوطة : ٢-٣٩ .

وفى العصر ذاته ، ذكر الرحالة الأوروبيون تلك الظاهرة الفريدة عن الجبانات : «على مسافة ميل تقريبا، شرقى المدينة، تمتد جبانات اسلامية فى غاية الاتساع، وهى مشهورة جدا . وترتفع عاليا بين المقابر زوايا ومبان يظن الانسان أنه ينظر إلى مدينة فسيحة بدلا من جبانة». وقال آخر: «وهناك جبانات واسعة توجد فيها مقابر المسلمين ، وشيدت بها مبان رائعة من الرخام والسماق والمرمر وغيرها من الأحجار الراقية، متقنة البناء ومذهبة ، لم أر شبيها لها فى روعتها فى العالم المسيحى بأسره . هذه هى مقابر قدماء السلاطين والأمراء ونبلاء العرب».

وحفظ لنا بيلوتى، فى سنة ١٤٢٠ ، أول وصف لمقابر المنطقة الجنوبية ، فقال:

على مسافة ميل من القاهرة، توجد مدينة غير مسورة ، فى اتساع مدينة البندقية ، وتوجد بها مبان مرتفعة وأخرى منخفضة. ويدفن فى هذه المدينة موتى أهل القاهرة . ولكل عربى من أهل القاهرة بناء فى هذه المدينة. فى المبانى المنخفضة يدفن الموتى؛ وفى المبانى المرتفعة يقدم النبلاء الذين يمتلكونها صدقات للفقراء كل يوم جمعة: فهذا هو يوم العطلة ، ويوم الصلاة الجامعة، ويوم إعداد وجبات كبيرة من اللحم . فى هذا اليوم، يذهب جميع فقراء القاهرة هناك ليأكلوا ويأخذوا الصدقات التى تعطى لهم .

فى هذه المدينة من المقابر، حيث كان المواطنون العاديون يدفنون فيما مضى فى مكان فاصل عند حافة الصحراء، شرقى القاهرة ، أخذت الأضرحة الفخمة تشيد لتستقبل رفات الحكام من المماليك. ويبدو كأن هؤلاء الأمراء الذين عاشوا حياة مليئة بالأحداث المثيرة ، رغبوا فى أن تكون مقابرهم فى مكان مهجور ناء، بعيدة عن جمال الحدائق الخضرة وأعين الأحياء ، وبعيدة عن صخب القلعة وكرسى الحكم ، كأنما يريدون أن يمنعوا ضوضاء الحياة من أن تقلق نومهم الأخير. وتضفى القباب والمآذن الصاعدة إلى السماء على المكان جوا من السكينة والحزن معا. هذه المبانى الناصعة البياض ، الخالية من الظلال ، تقف فى ضوء دائم صارم لايسمح مطلقا بتخفيف حدة زوايا البناء . وعند الغسق ، تصبح كرسم الظلال فى ارتفاعها إلى عنان السماء .

وقد زار هذا المكان بريدنباخ فى طريق عودته من القلعة، فقال:

فهبطنا منحدرا حادا لايخلو من من خطر ، ومررنا خلال عدد من الجبانات ، حتى وصلنا إلى مقابر السلاطين . فلكل سلطان مسجد خاص بنى فى البقعة التى اختارها لنفسه . وقد أمر السلطان الحالى قايتباى ببناء مسجد كبير فسيح ، له مآذن عالية ماهرة الزخرفة. كما أمر

بناء منازل كبيرة حوله ذات عدد كبير من الحجرات كالأديرة . وفيها يعول فقهاء الشريعة والدين الإسلامي.

ولنتوقف قليلا عند مقبرة قايتباى الهائلة ، التى تحير اللب بروحها المرحة. ففيها نرى ميلاد فن زخرفى رفيع ، فيه سحر وجمال . كما تشعرنا بالتعبيرات الظلية الدقيقة التى يخلقها فن الحفر العربى فى حركة رقيقة لامثيل لها . هذا هو عالم التخيلات المطلقة. ولكنه أيضا يمثل ازدهار فن الزخرفة المتألقة . هنا يصل التأنق ذروته ، ويبلغ فن الزخرفة أقصى درجات الروعة. فقد عمل الفنانون بموهبة طيّعة حتى بدا عملهم كأنه تم بغير عناء. ويشعر الزائر كأن البناء يرحب به فى سماحة وهدوء . وإذا ما حاول أن يتتبع المزج الدقيق بين الخطوط التى تكاد تشكل نغما متناسقا ، فإنه ينسى أهو أمام عمل من أعمال النحت أم أمام عمل من أعمال صائغ . كما أن تداخل عروق الرخام بين فاتح وقاتم، والعقود الحجرية المزينة بالفستونات تبدو كأنها تبتسم لنا. ففى هذا العصر، اتخذت المقابر مظهرا أليفا وديعا ، وهو أمر غريب حقا . ومقابر الخلفاء، هذه، كما تسمى- والتى لها من الشهرة ما طبق الآفاق (فى وقت مضى) - هذه الساحة الجنائزية والسهل الفسيح الذى تتخللها القباب والمآذن ، لاتحس بها أثرا للحزن على الاطلاق .

(١٠)

قصر السلطان وساحة القلعة

لنصعد إلى قمة جبل المقطم ، كما فعلنا فى بداية هذا الكتاب، ونقرأ مرة أخرى هذه الفقرة التى كتبها جوبينو .

يرى الإنسان تحته أولا ميدانا فسيحا ، وفى الناحية المقابلة، يرى مسجد السلطان حسن. وبعد ذلك عن يمين ويسار يرى المدينة ممتدة ، تخترقها آلاف الشوارع ، وتنتشر فيها المساجد والمبانى الكبيرة ، ويجملها فى مئات الأماكن مجموعات من الأشجار والحدائق . والمدينة غير مرحة ولا غريبة ولا جليلة بالمعنى الدقيق للكلمة ، نظرا لعدم وجود التناسق فيها على الاطلاق؛ ولكنها كبيرة ، فسيحة ، مكشوفة ، مليئة بالحياة والدفء والحرية ، ولذلك فهى مليئة بالجمال. وباستطاعة الإنسان، بطبيعة الحال، أن يجد مدنا أخرى تتوفر فيها بصورة أكبر مقاييس الكمال. لن تجد هنا شيئا تام الاستقامة؛ ولكن إذا كان الانتظام غير متوفر، فالمظهر العام جاد ونبيل ، رغم تنوعه، كما أن هناك شعورا بالقوة . ورغم أنها ليست من عمل الحضارات القديمة ، إلا أنها ترجع إلى عصور قديمة نسبيا. وهى عصور لم يعوزها الإيمان والفكر والشجاعة والثروة وكذلك النشاط.

هذه نقطة ملاحظة ممتازة لتأمل هذه المدينة الجليلة. فإذا بك أمام مسرح من الأضواء ، تحده من ناحية الشمال والجنوب مآذن المقابر الملكية لسلاطين المماليك. أمامك مباشرة تجد مسجد السلطان حسن واقفا فى جرأة متميزة . ويزيد من الشعور بفخامة هذا البناء الحجرى الهائل انتشار المبانى مزدحمة وراءه . ويستوقف نظرك طويلا منظر الريف المسطح خارج المدينة، بعيدا عن النهر الذى تقف وراءه مجموعة الأهرامات عند الأفق كسلسلة من البقع الصغيرة.

تساعدنا مدرسة السلطان حسن- ولعلها أجمل بناء إسلامى- على فهم الهندسة العامة لبناء المعاهد التى خصصت لتعليم المذاهب السنية الأربعة. ونظرة من خارج البناء ترينا أن المدرسة تتكوّن من فناء أوسط أو صحن وأربعة أواوين والايوان المواجه لمكة أكبر من الأواوين الأخرى. وهكذا يتخذ التصميم الداخلى شكل الصليب؛ وليس هناك ما يدعونا إلى أن نعزو

ذلك إلى تأثير مسيحي. من الخارج ، يبدو البناء مربعا أو مستطيلا ، بسبب وجود غرف بين أضلع الصليب للمدرسين وبعض تلاميذ المذاهب الأربعة.

إن منظر البناء بقوته وضخامته وجدرانه العالية الصارمة، ليبدو وكأنه يتحدى القلعة القائمة إزاءه . فكم من فتنة وكم من معركة دامية وقعت بين هذه الجدران. هذه مدرسة – في حقيقة الأمر– خصصت لأغراض التعليم الديني الهادئ، ولكن بسبب موقعها لعبت دورا سياسيا. فعند حدوث قلاقل في القاهرة ، كان هدف الثوار الأول تحويل هذا المسجد إلى معقل لهم. فالمنظر الخارجي يشبه حصنا مكعب الشكل. يزيد من مظهر ارتفاعه فجوات عمودية بها نوافذ ضيقة ، وحافة بارزة تمتد في أعلى الجدران . ويتكوّن مدخل البناء من ممر ذي عطفتين، يقود فجأة ودون أي تمهيد إلى فناء واسع مكشوف ، تحيط بجوانبه الأربعة أواوين ضخمة ذات أسقف معقودة . والنغم السائد في هذا البناء هو الوقار من غير شك، ولكن يخفف منه التناسق التام بين كتله .

يقع المكان الذي اختير لهذا البناء في مواجهة القلعة الحصينة التي تشرف على مدينة القاهرة، ولعل المهندس قد استوحى فنه من التحدي الناتج عن هذه المواجهة . فمن التحدي أن تشيد بناء صارم السمت كهذا في ظل عداوة واضحة من جدران القلعة. فقد حاول السلطان حسن أن يستغل كل شبر في القلعة ليجعلها تبدو كأنها تتحفز لتثب في كبرياء ووقار، بينما يبدو المسجد العملاق كأنه قد عقد العزم على سحق القلعة . ومما زاد مظهره تميزا موقعه الممتاز، ووجود الساحة التي تفصل بينه وبين غريمته . ونحن نلحظ في هذا الجامع الحصن جمالا أولمبيا ، يذكرنا إلى حد ما بكاتدرائية ألبي، إذ به من الصفات ما يجذب الذوق الفني العام. لقد أتمت روعة البناء دقة المنطق عند التصميم، فنتج عنهما عمل فني واضح المعالم بلغ حد الكمال ، بحيث أن أي تعليق يصبح غير ذي معنى. وهو يمثل قمة في فن العمارة سيتحرك بعده الفن المملوكي– بما فيه من سحر لاينكر – في اتجاه واحد فقط، نحو التخلف . ففي مصر، هو أكمل المباني الإسلامية، وأكثرها تناسقا ، وهو البناء الذي يستحق أن يقف جنبا إلى جنب مع الأعمال المعجزة التي خلفتها الحضارة الفرعونية . ومما يجعلنا نزيد في تقديره ، الظروف التاريخية التي بني في ظلها . فهو ينقض الاعتقاد السائد بأن وجود ظروف مستقرة منتظمة أمر لازم لعمل طويل مضن مثل هذا البناء الحجري الجريء الرائع . فقد استغرق بناؤه سبع سنوات من العمل والعناء ، إن صدقت العبارة التي قالها السلطان ذاته : «لولا أن يقال : ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه، لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه»[1]. ويضاف إلى ذلك العقبات السياسية التي أدت إلى عزل السلطان . وإنه لمن سخرية

الأقدار، أن الحاكم الذى بنى لنفسه مثل الفراعنة مقبرة خالدة مات مقتولا ولم يضم رفاته قبر.

الطاعون الذى حدث سنة ١٣٤٨، الذى قضى على ثلثى سكان فلورنسة ، تسبب فى موت أعداد مفزعة فى القاهرة. ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن ثروات بأسرها آلت إلى خزانة الدولة بسبب عدم وجود ورثة أحياء. فقد قيل إن الميراث فى بعض الحالات انتقل بين أربعة أو خمسة ورثة متعاقبين فى يوم واحد . كان ذلك فى النصف الأول من حكم السلطان حسن ؛ وربما كانت الزيادة غير المتوقعة فى الأموال سببا فى ميله إلى الاسراف .

من المحتمل أن السبب الذى دعا صلاح الدين إلى بناء القلعة هو تهدئة شعب قلق ومقاومة أى هجوم محتمل من جانب عدو أجنبى. «أما فى عصر خلفائه»، فيقول مارسيل كليرجيه :

اتخذت القلعة المظهر الأكيد للمدينة- القصر المحصنة . فاتصل البناءان تدريجا؛ بينما تضاعفت المنشآت القضائية والادارية ، وزحفت على المنطقة الواقعة أسفل النشوز الذى فى الجبل ، وفتحت أبواب كثيرة فى الأسوار. وأخيرا ، انقسمت الساحة إلى عدد من الأجنحة : غرفة لتنفيذ الأحكام ، وحظائر هائلة، وحمامات ، ومسجد ، وحدائق زودت بوفرة من الماء بطريقة ماهرة بالآبار والقنوات والسواقى. فجذبت إليها هذه المرافق عددا متزايدا من الناس، وتكونت الأسواق والمتاجر لبيع المأكولات والأسلحة والمواعين المنزلية. ويصفها كازانوفا بأنها كانت أشبه ببوتسدام، أو فرساى صغيرة ، تتخللها شوارع ضيقة منحنية منحوتة فى الصخر.

أعاد السلطان محمد بن قلاوون بناء غرفة السلطنة أو العرش الفسيحة فى القلعة. فشيد فوقها قبة رائعة ، ووسع مساحتها ، وزودها بأعمدة ممتازة من صعيد مصر، وكساها بالرخام ، ووضع فى الوسط كرسى السلطنة المصنوع من العاج والآبنوس . وزاد فى ارتفاع الغرفة كثيرا، وبنى أمامها ميدانا فسيحا . وبالباب المؤدى إلى الغرفة يوجد حاجز من الحديد المشغول بمهارة، ليمنع الناس من الدخول. أما السلطان نفسه، فكان له باب يبقى عادة مغلقا ، وفى مناسبات الإستقبال ، يفتح الباب حتى يرى من خلاله أو من خلال الشبابيك ذات القضبان الجزء الأكبر من جيشه فى الميدان. وكان السلطان يعقد الاستقبالات عادة يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

١- الخطط ٢ : ٣١٦ .

وتروى لنا إحدى الرحلات أنه :

في اتجاه منتصف مدينة القاهرة ، من الناحية الشرقية، فوق نتوء في الجبل ، توجد قلعة السلطان وهي واسعة، جميلة، حسنة البناء، تزينها المباني العسكرية والقصور ومكاتب الإدارة وغيرها من روائع الدولة . ويقال أن قطرها يبلغ الميل، وأنها تبعد عن المدينة بمقدار مدى قذيفة المنجنيق . ويقيم بها عشرة آلاف فارس ، معينون لحراسة السلطان ، دون أن ندخل في حسابنا أولئك الذين يقيمون في المدينة الآنفة الذكر. وأساسات القلعة ، وكذلك سائر منشآتها ، مبنية من حجر أبيض رخو . ولايوجد بالقلعة ، بالرغم من حجم الحامية العسكرية بها، أي عيون للماء ، وأسوارها- فيما يقال- تنهار بسهولة.

وإليك وصف خليل الظاهري في منتصف القرن الخامس عشر[١]:

وأما دار الملك الشريف التي بها تخت المملكة ، المعروفة الآن بقلعة الجبل، ليس لها نظير في الاتساع والزخرفة والأبهة والعلو، تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد، وهي حصينة جدا، وبها من القصور والأواوين والمجالس والغرف والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والجوامع والمدارس والأسواق والحمامات ما يطول شرح ذكره . ولكن نأتي بملخصه لما فيه من العظمة والأبهة والناموس الشريف . أما قصر الأبلق، فيه ثلاثة قصور شريفة وخرجاه برسم المواكب السلطانية . الجميع مفروش بالرخام الملون، والسقوف مدهونة بالذهب واللازورد والنقوش العجيبة . وأما الايوان الأعظم ، فليس له نظير، وهو مكان بمفرده بظاهر القصر، تعلوه قبة خضراء عالية جدا، حسنة المنظر، وبه مرتبة الملك، وعمد كثيرة ، وهو مكان عجيب . وأما الجامع الكبير الذي بالقلعة ، فليس له نظير . قيل أنه يصلى فيه خمسة آلاف نفر. وبه عمد عجيبة في الغلظ ، وبه منارتان . أما الدهيشة ، فهي من العجائب ، وعمارتها حسنة، من خواص مجالس السلاطين . وأما القياع المخصوصة بالآدر الشريفة فعديدة ... وأما طباق المماليك الشريفة السلطانية أثنتا عشرة طبقة، كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن ، حتى أنه يمكن السكنى في كل طبقة لألف مملوك. وأما الحوش الشريف ، فإنه متسع جدا، وبه بستان عظيم ، وبه بحرة معظمة، وأما الاصطبلات الشريفة، فإنها متسعة جدا برسم الخيول السلطانية . وأما الميدان الشريف ، المعروف بالأسود ، فمتسع جدا برسم المسايرة.

ويصر رحالة القرن السادس عشر على قلة القيمة العسكرية لهذه القلعة . فكتب جان تينو يقول:

١- زبدة كشف الممالك : ٢٦-٢٧ .

يكاد يبلغ قصر السلطان فى اتساعه مساحة مدينة أورليان . عند دخولنا أطلقت طلقتان . وكان هناك خمسون موسيقيا بآلات مختلفة. ومررنا بساحة بها نحو من خمسمائة مملوك في تشكيل عسكرى، فى ثياب طويلة بيضاء وقبعات مستديرة خضراء وسوداء ثم مررنا بساحة أخرى، رأينا عند مدخلها بعض عدد الحرب وآلات تحطيم الأسوار ، كما رأينا صانعى الأسلحة ومشقفيها ، وفى هذه الساحة نحو من ألفى مملوك أبهى منظرا من الآخرين . وعلى رأس هذه الساحة ، فوق حجر مرتفع مغطى بالسجاد الثمين ، جلس السلطان القرفصاء . وأمامه على الأرض سجادة لاتقل مساحتها عن عشرين قدما مربعا ، ملابسه من الحرير الأصفر، وعلى رأسه عمامة عالية مصنوعة من نسيج رفيع من الهند، ومُشكَّلة على هيئة ست قمم، اثنتان إلى الأمام، واثنتان إلى اليمين، واثنتان إلى الشمال . وكان هذا الأسلوب من العمائم ذات القمم العالية مستخدما منذ عشرين عاما فقط فى ذلك الوقت.

ويضيف تريفيزانو البندقى، الذى استقبله حاكم مصر:

للقاهرة قلعة غير قوية ، ويبلغ محيطها نحوا من ثلاثة أميال . وهى مشيدة على أرض مرتفعة من الصخر، وتشرف على المدينة بأسرها . وبداخلها قصر السلطان، وهو فى غاية الجمال والامتاع . ولايوجد فى القاهرة مكان آخر محصن . ومثل هذه القلعة لاتسمى حصنا فى بلادنا ، وإنما يطلق عليها اسم قصر عظيم .

كان السلطان يجلس أثناء المقابلات الرسمية تحت مظلة مطرزة بخيوط من الذهب . ويزين باب مخزن الأسلحة اعلام ورايات وأسلحة مثل عدة الخيل والزرديات والبلط والسيوف . وأكثر وصف تفصيلى لمقابلة فى القلعة ما ذكره فيليتشى برانكاتشى الفلورنسى الذى حظى بمقابلة السلطان بيبرس سنة ١٤٢٢ ؛ قال:

قبل بزوغ الفجر بساعة ، حضر إلينا ادلاؤنا وأحضروا معهم خيلا، وحضر معهم أحد النبلاء المعينين لاستقبال السفراء ، وكذلك عدد من الموظفين الآخرين، بعضهم مترجلين وبعضهم على ظهور الخيل، وخرجنا قاصدين شطر قلعة السلطان الواقعة على مسافة ميلين فوق مكان مرتفع . ووصلنا عند مشرق الشمس، ولكننا انتظرنا نحوا من ساعة خارج الأبواب الأولى، وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، وأخذ المماليك، وهم النبلاء على مختلف درجاتهم ، يتوافدون على القلعة . وكانوا فى أعداد كبيرة يلبسون زيهم التقليدى من التيل الأبيض الذى يصل إلى الأرض تعلوه عباءة فضفاضة من الكتان الرفيع ذات أكمام محلاة بصفوف من التطريز الأزرق تتكون من رسوم اختص بها هؤلاء القوم. وقد ارتدى جميعهم هذا الزى. وفى

منتصف الساعة الثالثة، صعدنا إلى القلعة بواسطة طريق صاعد يبلغ اتساعه ثمانين ياردة ولكنه شديد الانحدار وشاق لصعود الخيل، حتى وصلنا إلى باب دخلنا منه إلى فناء كبير، حيث جلسنا بين عدد كبير من المماليك وانتظرنا نصف ساعة . وبعد ذلك ، مررنا خلال باب آخر وسرنا فى عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من المماليك يواجه كل منهما الآخر حاملين الرماح فى أيديهم، حتى وصلنا إلى باب آخر تقوم عليه الحراسة بالطريقة ذاتها. وبعد أن واصلنا السير خلال ممرات ذات قباب، خرجنا إلى فناء حيث شاهدنا مرة ثانية رجالا مسلحين بالرماح ومصطفين بالطريقة ذاتها. وهناك ، تم تفتيش ثيابنا بما فيها الملابس الداخلية للتأكد من عدم وجود أسلحة معنا. وأخيرا وصلنا إلى حيث يقيم السلطان ، بعد أن صعدنا ثماني مجموعات من الدرج وقف على طولها رجال مسلحون بالرماح، ورماح هؤلاء تنتهى برأس من الحديد متعدد السنان وهي تشبه ما نطلق عليه عندنا اسم halberd (وهو نوع من الفؤوس ذات السنان المدببة) ، وقد عقدوا رماحهم فوق رؤوسنا اثناء مرورنا. وفى كل مكان من أماكن الحراسة هذه، وجد نحو من اثنى عشر رجلا من حاملى الرماح. والحجرة التى دخلناها ، حيث جلس الأمير، تنقسم مثل الكنيسة إلى ثلاثة أروقة يفصل بينها أعمدة من الحجر. والرواق الأوسط أكبر من الرواقين الجانبين . وتنفتح هذه الأروقة من الجانب الذى دخلنا منه، ويغطى الفتحات شبكة مسدلة من أعلى إلى أسفل . ورصفت أرضية الأروقة بالرخام المطعم، كما غطى أكثر من نصف الأرض ببساط . وفى مواجهة المدخل، ترتفع منصة تؤدى إليها درجات على الجانبين وقد جلس السلطان على أرض هذه المنصة . وليس لهذه المنصة حافة مرتفعة، كما كان الدرج على الجانبين بغير سور ، وكان من السهل رؤية السلطان من كل مكان . وكان يرتدى ملابس من الكتان مثل الآخرين، ويبلغ من العمر حوالى ثمان وثلاثين أو أربعين سنة، وله لحية بنية اللون، ويقف خلفه مباشرة عدد كبير من المماليك، يحمل أحدهم سيفا مشهورا وجرابه فى يده ، ويحمل آخر ابريقا، ويرفع ثالث عاليا فوق كتفه الأيمن عصا من الذهب الخالص يبلغ طولها ياردة واحدة وسمكها بوصة. ويقف عدد كبير من المماليك بالقرب منهم وعلى الدرج الجانبى وعند أسفل المنصة. وقد نظم هذا الجمع الكبير بطريقة تذكرنا بمناظر مواكب النصر التى ترى فى الصور. وانتشر فى كل مكان ، وخاصة على الدرجات أسفل العواميد ، موسيقيون يعزفون على الكمان والربابة والعود والآلات الخافتة الصوت والصاجات ، جميعا فى وقت واحد بصحبة مغنين، محدثين أصواتا عالية، وقد يتفق النغم أحيانا . ولايمكننى أن أقدم وصفا منظما نظرا لأن عينىّ أعماهما البريق ، وأصمت أذنىّ الأصوات ، وكنت ملزما فوق ذلك بتقبيل كل درجة . وبالإضافة إلى ذلك ، يمسك رجلان

بكتف كل واحد منا ويدفعاننا ونحن منحنون كما لو كنا من دواب الحمل. وفى كل مرة أرادوا منا أن نقبل الأرض ، كانوا يصيحون صيحات عالية في لغتهم بشكل اصم آذاننا. وعلى هذا النحو، الزمونا بتقبيل الأرض سبع أو ثماني مرات، حتى إذا أصبحنا على مسافة خمس وعشرين ياردة من السلطان ، توقفنا وسكتت الأصوات. وطلب منا ألا نطيل الحديث فى هذه المقابلة الأولى التى ظلت اثناءها ثلاثة فؤوس لامعة مشهرة ويلوح بها فوق رؤوسنا. ولم نكد نذكر لمترجمنا بضع كلمات نقدم بها الموضوع حتى قوطعنا بكلمات «كفى ... كفى ...»، وبعد أن ألزمنا بتقبيل الأرض، سحبنا إلى الوراء نحو مدخل الغرفة، وهناك ، بعد أن قبلنا الأرض، سمح لنا أن نُدير ظهورنا للسلطان وأن ننصرف . وهنا غادر السلطان الغرفة أيضا.

وهذا وصف أخير للقلعة كتبه بيير بيلون يمكننا أن نذكره، فهو لايقتصر على ذكر تفاصيل مماثلة فحسب ولكنه يقدم تحية أخيرة لسلاطين المماليك:

إن مباني قلعة القاهرة ، وحجراتها ، وابهاءها الجميلة، والرسوم الموجودة فيها، لتقوم دليلا على عظمة الجراكسة الذين حكموا مصر مدة ليست بالطويلة . فالجدران مرخمة بقدر ارتفاع قامة رجل، وحول الأبواب والنوافذ ؛ وهناك اطار يبلغ عرضه قدما مطعّم على الطريقة الدمشقية بالصدف والآبنوس والبلور والرخام والمرجان والزجاج الملون. وتقع القلعة على صخرة صلبة قطعت فيها درجات لتيسر الصعود. وعلى هذا ، فإن موقع القلعة يتكون من أرض مرتفعة تكاد تكون مستديرة ؛ وهناك عدد من الابراج العالية المستديرة صنعت على الطريقة القديمة وليست من مواد بناء جيدة. وميدان القلعة كبير فسيح ، كما أن المبانى جميلة مشرقة لأنه عند النظر من النوافذ هنا وهناك ، حيث المناظر الجميلة المكشوفة ، يمكن رؤية مصر بأسرها تقريبا. ولكن لاتعتبر قلعة القاهرة منيعة جدا إذا ما قورنت بما عندنا من حصون .

وقد أدركت الحكومة نفسها هذه الحقيقة، فحين هددتها ثورة فى سنة ١٥٠٠، قررت إعادة تنظيم الدفاع عن القلعة، فوضعت المدافع فوق الأسوار، كما تم إصلاح الأسوار والقلاع ، وأقيم باب على السلم المدرج الذى لايزال موجودا؛ وأحيط باب السلسلة ببرج بنى من الحجر ، وفتحت فيه فتحات لرماة السهام وأبواب صغيرة . وسد السلطان الفتحات المؤدية إلى الميدان وساحة العرب والحظائر بالقرب من منحدر المدخل. ثم أمر بهدم مدرسة السلطان حسن، فبدئ العمل فى جزء من الواجهة ، وحين مضت ثلاثة أيام دون انجاز شئ يذكر، عدل عن المشروع. وقد انزعج الناس بشأن الإقدام على هدم مثل ذلك البناء الرائع الذى لامثيل له فى سائر أنحاء العالم، كما أنه هدم فى غير طائل. وفضلا عن ذلك، فقد ثبتت استحالة التنفيذ ، وكان

العدول أكثر نبلا من الاعتراف بالاخفاق . وأمر السلطان باحضار العلف والفطائر والجبن وغيرها من مواد الغذاء الأساسية إلى القلعة. فامتلأت المخازن والمطابخ بكل ما كان ضروريا لمواجهة حصار شهرين . ودمر سلم مدرسة السلطان حسن . واحضرت إلى القلعة مواد حربية ، وخاصة قطع من الخشب لبناء سلالم التسلق والمتاريس . وأخذت من مخزن السلاح السيوف والزرديات والدروع بأنواعها والقسى والسهام ووزعت بين الجنود .

أما مشكلة الماء ، فقد أعيد التفكير فيها بعد ذلك بقليل . ففي حوالى شهر نيسان (أبريل) من سنة ١٥٠٧ ، أمر السلطان بتدمير خليج مصر القديمة وإعادة بنائه . فحفر بئر عند نقطة ابتدائه ووصل بينه وبين النيل بمجرى مائى ، ورفعت المياه إلى المستوى المطلوب بواسطة مجموعة من السواقى. ورفعت القناة التى كانت تصل إلى القلعة على عقود تعتمد على أعمدة. وقد اعتبرها أهل العصر معجزة كبرى، ولكنهم ضاقوا بالأموال الطائلة التى انفقت فى بنائها ، خاصة وأن هذه الأموال استخدم فى جمعها أساليب العنف ومصادرة الأملاك. وتبدو هذه القناة عند النظر إليها من مكان مرتفع فى حالتها الهالكة الراهنة ، «بحكم موقعها فى سهل قاحل، كهيكل عظمى لثعبان قد تفككت فقراته» .

ويوجد في القلعة عدد من السجون. فهناك الجب الذى بنى فى نهاية القرن الثالث عشر ، وكان يسجن فيه الأمراء. وبعد أن استمر استخدامه أربعين سنة ، نزل إليه مفتش المبانى ليصلح عمارته، فشاهد أمرا مهولا من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة التى شاعت فى هذا السجن الأرضى. فأمر بردمه فى الحال. ولكن يوجد سجن آخر لايقل عنه سوءا كان يسمى «ارقوانة» (أى بركة الوحل)، وكان يستخدم للمسجونين السياسيين أو للتجار الذين خالفوا القانون . بعض هؤلاء المسجونين وضعوا فى الحديد وتركوا هناك سنين طويلة. وبطبيعة الحال كان الهروب ممكنا ، ولكن تحت خطر كبير . وليس لدينا سوى أوصاف متأخرة عن هذه السجون كتبها لنا الرحالة الأوربيون .

يرى الإنسان احباسا وسجونا من بينها ذلك السجن الذى احتجز فيه يوسف النبى وحيث قام بتفسير أحلام زملائه الذين سجنوا معه، وهو فى الوقت الحاضر عفن نتن حيث تساء معاملة المسجونين المساكين المقيدين بالسلاسل والمشدودين بالحديد إلى كتل من الخشب ؛ وإذا لم يمنحوا صدقات ، فسوف يكون مآلهم الموت جالسين على أرض رطبة وعلى القاذورات التى تتكوم فى كل مكان .

من بين المبانى الخارجية فى قصر السلطان بالقلعة التى زارها بعض الرحالة، حظائر السلطان التى لم تضم الخيل الخاصة فحسب ولكن ضمت كذلك عددا من الحيوانات الغريبة الجميلة. فكان هناك، أولا، الفيلة . وفى ذلك يقول أحد الرحالة : «رأينا ثلاثة منها، وكل واحد مقيد من رقبته وأقدامه إلى عواميد وقوائم بواسطة سلاسل ضخمة من الحديد ، ورغم أنها من غير شك حيوانات فظيعة وليست جميلة المنظر، إلا أنها، بسبب ضخامة حجمها وعلوها، تبدو متمتعة بتلك القوة العظيمة التى يتحدث عنها الكتاب المقدس».

ولكن لعل الزرافة كانت أكثر اثارة للعجب من غيرها من الحيوانات .

إنها عظيمة الارتفاع بحيث أن رجلا طويلا لايكاد يبلغ بأطراف أصابعه أعلى فخذيها ، وهى حيوان جميل جدا يتميز بالرقة والوداعة ، لايخلو شعره من التجاعيد، وجلده شديد الشبه بجلد الغزال. وتغطى جسم الزرافة بطريقة أو أخرى بقع ملونة خفيفة ، ورقبتها ضعيفة طويلة وتحملها عاليا عند المشى. ويوجد فوق رأسها قرنان صغيران ، وجبهتها مدببة فى شكل الماس، وقائمتاها الاماميتان أكثر ارتفاعا من الخلفيتين، وبسبب هذه الخاصة . يحسبها الناس وكأنها مشوهة التركيب، وذيلها الذي لايكاد يتحرك رفيع ويغطيه شعر قليل جدا عند الطرف.

ويحتمل أن السلطان احتفظ أيضا بحيوانات مفترسة، فقد قيل أنه فى يوم ٣٠ نيسان (أبريل) سنة ١٥١٥ اصطرعت فيلة كبيرة الحجم وأسود وحيوانات أخرى متوحشة فى الميدان .

* * *

لو أن العالم الإسلامى عرف فكرة الـ "commune" (والمقصود بها اغتصاب هيئة من الأفراد لسلطة الحكم الذاتى) لمثّل بناء السلطان حسن المواجه لمركز الحكم تحدى المدينة لسلطان الدولة. وعلى أى حال ، فإن وجود هذا البناء العتيد فى هذا المكان شكّل خطرا مستمرا. فنحن نعرف أنه لم يكن دائما بقعة هادئة آمنة، إذ كان مسرحا لأشد المغامرات السياسية دموية فى تاريخ المماليك؛ ففيه ارتكبت أغرب الجرائم وأكثرها وحشية. ففى هذا العصر ، ساد من القلق والاضطراب مـا يبعث على الأسى، حين تلاطمت على بناء القلعة موجات من الغضب والسخط. فهذه الساحة للعرض العسكرى تشبه ميدان السنيوريا فى فلورنسة - إذا ما تغاضينا عن طبيعة اختلاف المكانين- من حيث أنها القلب النابض للحياة السياسية طيلة قرنين من حكم سلاطين المماليك.

بين الحصنين ، الحصن الحقيقى ومسجد السلطان حسن، أقيمت الحفلات والموائد للسفراء فى وقت السلم. فالمكان فسيح حقا، حيث يستطيع الناس أن يتمتعوا بالمشى . وكان هذا الميدان المسطح لايخلو من أعداد لاتنتهى من الناس، بين راجل وفارس، ولا من الجنود وسائر موظفى السلطان . وفيه سوق لبيع الجمال والحمير والخيل .

وإلى الجنوب منه الميدان، وهو مكان مباريات المبارزة ، حيث عرض المتبارزون أساليب مهارتهم فى المراوغة ، التى أعجب بها المماليك أيما اعجاب . كما عقدت مباريات البولو التى كانت تسمى لعبة الكرة، فى هذه الساحة الرملية. وقد كتب رحالة من ذلك العصر يقول :

أحيانا يجنح السلطان مع سائر ضباطه إلى التسلية . والتسلية التى يمارسونها هى ذاتها التى يقوم بها الرعاة فى البلاد المسيحية الذين يلعبون بكرة وعصا منحنية، وهناك فرق واحد، وهو أن النبلاء وسلطانهم لايضربون الكرة إلا من فوق ظهور الخيل؛ وحولوها بأسلوبهم الخاص إلى مباراة عسكرية ، لقياس قيمة الفرَس وقوة راكبه وسرعة حركته وغيرها من الصفات العسكرية.

كانت الكرة توضع فى وسط الملعب، ويرسم خطان متوازيان : خط عند كل طرف . وينقسم الراكبون إلى فريقين. ويحمل كل لاعب مضربا ذا يد طويلة ، ويحاول أن يضرب الكرة وراء الخط المواجه . وقيل أيضا أنه «وجد عند نهاية الملعب قصر فسيح مرتفع ، تستطيع منه نساء السلطان وسائر النبلاء مشاهدة اللاعبين، وخاصة السلطان نفسه، دون الاختلاط بالجمهور الكبير من النظارة . وكلما جاء دور السلطان ليضرب الكرة ، يصفق الجميع ويباركون، وتصدع أصوات الأبواق مرات عديدة ، وتسمع دقات خافتة عميقة من الطبول بين الصياح والتهليل» .

وفى هذا الميدان أيضا، أظهر المماليك مهارتهم كرماة: فالرماية هى الرياضة الوطنية بين المماليك الأتراك . فكانت حمامة توضع داخل قفص من الذهب أو الفضة. ويطلق المتبارون سهامهم أثناء ركوبهم بأقصى سرعة ، محاولين اصابة الحمامة.

شاهد جياكومينو الفيرونى التدريبات العسكرية اليومية للمماليك ، وقال:

يجتمع الجنود كل صباح أمام باب القلعة . وجميعهم مسلحون بالقسى، ويركبون خيلا صغيرة ؛ ولم أر بينها أبدا فرسا حربيا. وأجسام الفرسان ضعيفة الحماية، ولايغطى رؤوسهم سوى خوذ صغيرة من الحديد. وقليلون منهم فقط يلبسون الدروع ، أما الآخرون ، فيلبسون وقاء من الجلد فقط. وليس لأحدهم أى وقاية للذراع الذى يحمل القوس، ولا للأفخاذ

والأرجل. وهم يستخدمون ركابا قصيرا، وعندما يريدون الرمي بالقسي، يقفون عاليا عليه . ومن هذا الوضع يرمون السهام. أما خيل السلطان، فقد رأيتها جميعها تلبس أغطية مطرزة بخيوط الذهب والحرير. وحسب قول رحالة آخر من القرن الرابع عشر :

يركب جميع الفرسان على سروج منخفضة وركابات قصيرة ، كما تفعل النساء . وفى مؤخر كل سرج توجد حلقة يثبت فيها بطريقة عسكرية عصا أو هراوة لوقاية الفارس وحمايته . وجميع الفرسان بغير استثناء مسلحون بسيف مقوس، كما أن أكثرهم رماة مهرة، وخاصة الأتراك منهم الذين يستخدمون أقواسا مصنوعة من قرون محدبة ، وسهاما ذات رأس كراس الحربة ، ورأس السهم مثبت فى جسم السهم كما يثبت السلاح فى مقبض السكين .

وقد وصلتنا معلومات مشابهة من نهاية القرن الخامس عشر تقول : « فى كل يوم، أو على الأقل ثلاث مرات فى الاسبوع ، يخرج مماليك القصر إلى أسفل الجبل، ليقوموا بتدبياتهم العسكرية . وتشتمل هذه التدريبات على تسلق المضايق والمنحدرات ، وبذلك يدربون خيولهم على الحركة فى السهول والجبال»

وقد بلغت القلعة أوجها فى عصر السلطان الغورى فى بداية القرن السادس عشر ، إذ أمر هذا الحاكم بأن يرفع مستوى الأرض فى الميدان بمقدار أربعة أقدام، ثم سويت وغطيت بالحصى الصغيرة . وكذلك بنيت مقصورة وغرفة لتستخدم كدار للمحكمة . وفى الطرف الغربى ، شيدت شرفة ذات مظلات جميلة صغيرة على الجانبين وبركة من الماء. كما زرعت أشجار الفواكه وأحواض الأزهار وشجيرات النباتات العطرية. فهذا السلطان الذى أولع بزراعة الأشجار كان يحب أيضا منظر أحواض الزهور. وكان يذهب إلى ذلك المكان كل يوم، ليس فقط لأنه مكان اجتماعاته الرسمية ولكن لأنه كان يحب المشى فيه .

ولنقرأ الوصف الذى أورده تريفيزانو، سفير دوقية مدينة البندقية:

هو ميدان يمتد أسفل الأسوار وتتم فيه تمرينات الفروسية الماهرة . وهذا الميدان الكبير يبلغ ضعف حجم ساحة القديس مرقس، وهو مستطيل الشكل. وحديقة السلطان أوسع من الميدان ، وفى وسطها تقوم على مستوى أعلى بدرجة واحدة من مستوى الأرض شرفة مشيدة على أعمدة ، تغطيها النباتات الخضراء ، معلق على جانبها وخلفها مظلات من القماش للحماية من حرارة الشمس ، وعلى كل عمود معلق قفص فيه طائر صغير يغرد ، وتمتلئ الحديقة بأشجار الرمان والكمثرى والتين والعنب والآس وغيرها من الأشجار المختلفة.

وفى شهر ايار (مايو) من سنة ١٥٠٩ [١]:

أقام السلطان احتفالا فى الميدان ، ونصب به خيمة كبيرة مستديرة ، وملأ البحرة التى انشأها هناك من ماء النيل بواسطة المجراة التى انشأها ، ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك البحرة ، وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ، وعلق أحمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير وأرباب الوظائف من المباشرين وأعيان الناس قاطبة ... ومد (السلطان) تلك الليلة أسمطة حافلة، فمد فى السماط أربعمائة صحن صينى، ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية (ما يعرف بالمارزيان وهو من عجين اللوز) ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لاينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل، ومن الدجاج ألف طير، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا، ومن الرمسان الرضع أربعون رميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيها من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك.

وفى اليوم العاشر من نيسان (أبريل) سنة ١٥١٠، فى عيد رأس السنة الهجرية، نزل السلطان إلى الميدان لتقبل تهانى كبار ضباطه . وقدم لكل واحد منهم وردة. ويضيف المؤرخ الذى أورد لنا هذا الخبر قوله [٢]: «فقبلوا له الأرض الأمراء المقدمون لأجل الورد، حتى عد ذلك من النوادر».

فى سنة ١٥١١، اينعت الشجيرات التى غرسها السلطان بالميدان، وأخرجت ما شتله به من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة. وفى ذلك يقول ابن إياس [٣]:

ولقد عاينت به (يعنى الميدان) وردا أبيض زكى الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التى بمصر، وقد نقل من الشام، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر . فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والآبنوس ويفرش فوقها مقعدا مخملا بنطع ويجلس عليه، وتظله فروع الياسمين ، ويقف حوله المماليك الحسان بأيديهم

١- بدائع الزهور ٤ : ١٥١ .

٢- بدائع الزهور ٤ : ١٧٧ .

٣- المصدر نفسه ٤ : ١٧٢ .

المذبات ، ينشون عليه. ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوّق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع. ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة . وتارة يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا وتمتلئ كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجراة تجرى ليلا ونهارا . فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة ولايدخل عليه من الأمراء أحد إلا من يختاره .

هذا هو المكان الذى أقام فيه السلطان حفلات رائعة للسفراء الذين كانوا يمرون بالبلاد . وفى بداية القرن السادس عشر ، أرسل عدد من الحكام سفارات إلى سلطان مصر. ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ١٥١٢ ، وجد فى القاهرة نحو أربعة عشر قاصداً (سفيرا) فى وقت واحد . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفى، وقاصد ملك الكرج (جورجيا) ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان (كيليكية) ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم، وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان، وقاصد صاحب تونس ملك المغرب، وقاصد من مكة، وقاصد الملك محمود (البنغال) ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان، وقاصد من عند نائب حلب. وقاصد من عند حسين الذى توجه (فى تجريدة) إلى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة (فرنسة) ، وقاصد البنادقة (البندقية) ، وقاصد على دولات (سليكية) ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب [١].

١- أنظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٨-٢٦٩ .

الخاتمـة

عرفت دولة سلاطين المماليك نهايتها فى الواقع فيما يمكن أن يسمى ساحة الاعدام، وهو الباب الجنوبى للقاهرة الفاطمية، المسمى بباب زويلة.

ففى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٥١٧، ألبس السلطان السابق طومان باى رداء ذا أكمام طويلة وقلنسوة ، وكان مقيدا بالسلاسل ومحمولا فوق جمل، ثم عبر المدينة من شمالها إلى جنوبها . وعند باب زويلة، انزل عن دابته وفك وثاقه وأحاط به الجنود العثمانيون الذين حملوا سيوفا مشهورة . وعندما أيقن أنه سوف يشنق ، وقف أمام الباب وصاح : «اقرأوا الفاتحة لى ثلاث مرات! » ثم مد يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات . ثم استدار نحو الجلاد وقال : «قم بعملك ! » فوضع الحبل حول عنقه وشد إلى أعلى. فتمزق الحبل ووقع طومان باى أسفل الباب. ويقال إن الحبل تمزق مرتين ووقع منه الرجل إلى الأرض . وفى آخر الأمر، شنق عارى الرأس وجسده مغطى بأسمال حمراء، وقدماه مقيدتان بأشرطة من قماش أزرق. وعند موته، علت صيحة عظيمة من الجمهور الحزين المنكسر .

كان من المتوقع أن يقع هذا الاعدام . ولكن لسوء الحظ، لم يتوقف السلطان سليم عند هذا الحد؛ فبعد ذلك بعدة أشهر ، شهد حفلة من حفلات خيال الظل فى جزيرة الروضة ، وفيها عرض الفنانون باب زويلة وطومان باى ممثلا بدمية عند وقت شنقه . ووجد السلطان العثمانى المنظر مسليا عندما تمزق الحبل مرتين. واعطى الفنان مائتى دينار وقال له: «عندما نذهب إلى استانبول، احضر معنا حتى يستطيع ابنى أن يرى هذه التمثيلية! »

مجمل تواريخ حكام مصر

الولاة زمن الخلفاء	٦٤٠ - ٨٦٨
الدولة الطولونية	٨٦٨ - ٩٠٥
عودة الولاة	٩٠٥ - ٩٣٩
الدولة الاخشيدية	٩٣٩ - ٩٦٩
الدولة الفاطمية	٩٦٩ - ١١٧٢
الدولة الأيوبية	١١٧٢ - ١٢٥٠
سلاطين المماليك	١٢٥٠ - ١٥١٧
الفتح العثمانى لمصر	١٥١٧

مراجع مختارة

الكتب العربية :

ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى، الأجزاء ٣ و ٤ و ٥ ، القاهرة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣ .

ابن بطوطة : الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٠ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٣ .

ابن جبير : الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، ليدن، ١٩٠٧ ؛ بيروت ، ١٩٥٩ .

ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، ١٩٥٧ ؟

ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ١٩٦١ .

ــــــــــــ : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة ، وعنه نقلت ط. بيروت، ١٩٥٩ .

أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها : المدخل (١٩٦١) ، والجزء الأول : العصر الفاطمى (١٩٦٥) ، القاهرة .

الادريسى: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، المأخوذ عن كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليدن، ١٨٦٤ .

خليل الدهيرى الظاهرى : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ، ١٨٩٤ .

دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبوريدة ، القاهرة.

ساويروس بن المقفع الاشمونى : تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية بالاسكندرية ، وهو الجزء الأول من مجموعة Patrologia Orientalis ، باريس ، ١٩٠٣ .

سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام، القاهرة ١٩٤٧ .

شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ، القاهرة، ١٩٥٩ .

الشهرستانى : الملل والنحل ، القاهرة ، ١٩٦١ .

عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩- ١٨٢٥م) من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، القاهرة، ١٩٦٦ .

عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، لندن، ١٩٦٥ .

العياشي: رحلة أبى سالم عبدالله بن محمد بن أبى بكر العياشى، فاس، ١٣١٦هـ .

المسعودى: التنبيه والاشراف ، ليدن ، ١٨٩٣ .

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٥٨ .

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن، ١٨٧٧ .

المقِّرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩ .

المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، بولاق، ١٢٧٠هـ.

ـــــــــ : السلوك لمعرفة دول الملوك، ثلاثة أقسام، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، ١٩٣٤- ١٩٤١ .

ناصر خسرو : سفر نامه ، نقله إلى العربية د. يحيى الخشاب، القاهرة ، ١٩٤٥ .

الكتب الأجنبية :

Affagart, Geffin . Relation de Terre Sainte . Redigé par J. Chavanon . Paris , V . Lecoffre, 1902 .

Anglure, Ogier d' le Saint voyage de Jerusalem, Redigé Par François Bonnardot et Auguste Longnon . Paris , Firmin- Didot , 1878.

Baumgarten , Martin von . Pergrinatio in Egyptum. Nuremberg, 1594 .

Belon , Pierre. Les observations en Gréce, Asie, Egypte, Arabie. Paris, 1555 .

Breydenbach, Bernhard von . Les saintes Pérégrinations. Texte et traduction par F. Larrivaz . Le Caire, 1904 .

Casanova, Paul . "Histoire et description de la Citadelle du Caire ". Mémoires de la Mission archéologrique française du Caire Tome VI , Le Caire, 1897 .

Clerget , Marcel. Le Caire. Le Caire, E. et R. Schindler 1934 .

Dopp, P.H. " Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du moyen âge". Bulletin de la Socieeté royale de géographie d'Egypte. Tome XXIII, 117-49 ; Tome XXIV , 115-62 . Le Caire. 1950-51 .

Franz, Julius . Kairo . Leipzig E, A. Seemann, 1903 .

Hautecoeur, Louis , et Gaston Wiet . Les Mosquées du Caire . Paris , Ernest Leroux, 1932 .

Issa, Ahmed Bey . Histoire des Bimaristans . Le Caire, 1928 .

Lane , Edward William . An account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians . 2 vols London , 1836-37 .

Lane - Poole , Stanley . Cairo : History , Monuments, Social Life . London , J.S. Virtue and Co. , 1892 .

______ A History of Egypt in the Middle Ages , London Methuen and Co ., 1901 .

_____ Saladin and the Fall of the Middle Ages. London Methuen and Co ., 1901 .

_______ The Story of Cairo . London , J.M. Dent and Co . 1902 .

Leo Africanus . Description de l'Afrique. Traduction par A. Epaulard. Paris , A . Maisonneuve, 1956 .

Levi - Provençal , Y.E. Gacia Gomez . Una Cronica Anoni ma de Abd Al-Rahman III Al Nasir . Madrid- Granada , 1950 .

Margoliouth, David Samuel . Cairo, Jerusalem , and Damascus , London , 1917 .

Migeon , Gaston , Le Cairo , Paris , H. Lauréns, 1906 .

Piloti , Emmanuel , L'Egypte au commencement du quinziéme Siécle , Redigé par P.H. Dopp . Le Caire, 1950 .

Ravaisse , P. " Essai sur l'ihistoire et la topographie du Caire" Mémoires de la Mission archéologique Française du Caire. Tomes I, III. Le Caire, 1886-89 .

Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. sous la direction de E. Combe , J. Sauvaget et Gaston Wiet . 16 Tomes. Publications de l'Institut Français d'archéologie orientale , Le Cairo , 1931- 1964 .

Rhoné , Arthur. L'Egypt à petites Journées, Paris, Société générale d'éditions , 1910 .

Russell, Dorothy . Medieval Cairo and the Monasteries of the Wadi Natrun . London , 1962 .

Salmon , Georges . " Etudes sur la topograohie du Cairo".

Mémmoires de L'Institut français d'archéologie orientale. Tome VII . Le Caire, 1902 .

Sladen , Dougla B.W. Oriental Cairo. London, 1911 .

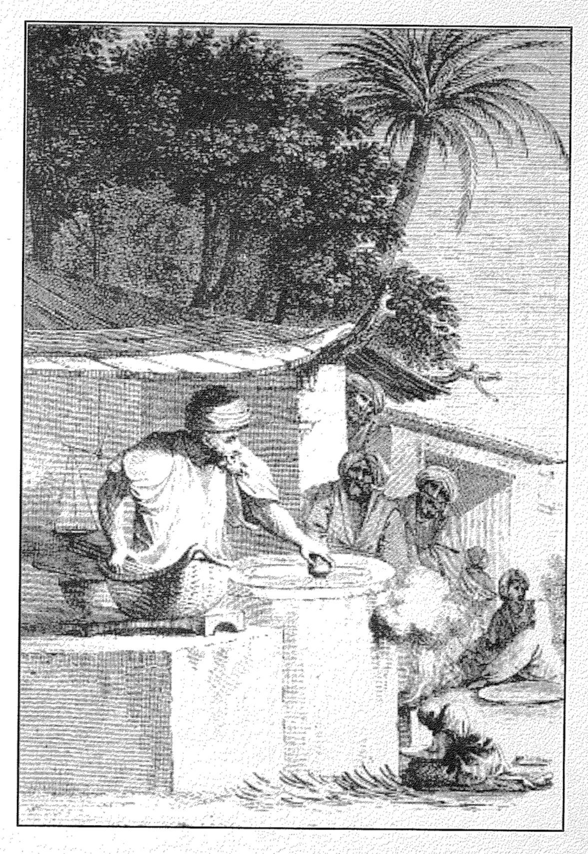
Thenaud , Jeans. Le voyage d'Outremer. Redigé par Charles Schefer. Paris , Ernest Leroux, 1884 .

Wiet, Gaston . L'Egypte arabe . Histoire de la nation égyptienne. Dirigée par Gabriel Hanotaux . Tome IV . Pris, 1937 . Zand, Kamal Haffuth , John A, and Ivy E. Videan . The Eastern key. London . 1965 .

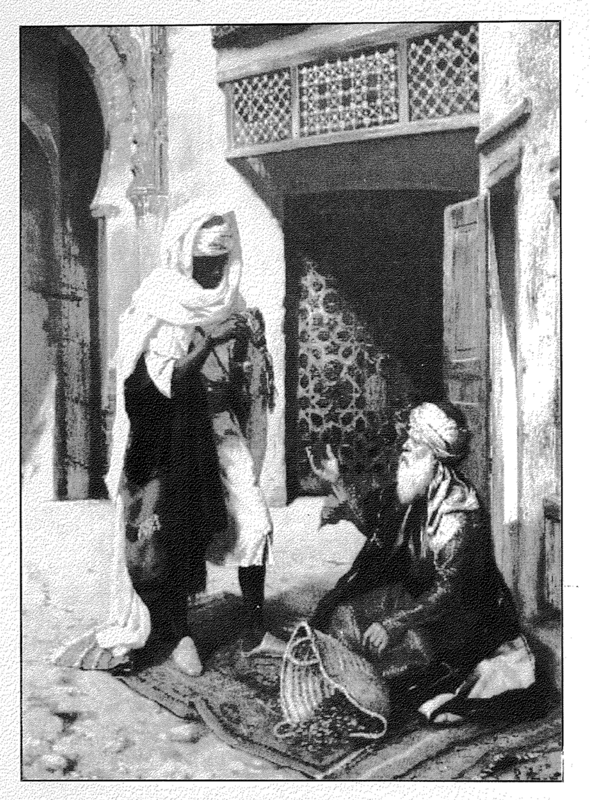
ملحق الصور

سوق النحاسين

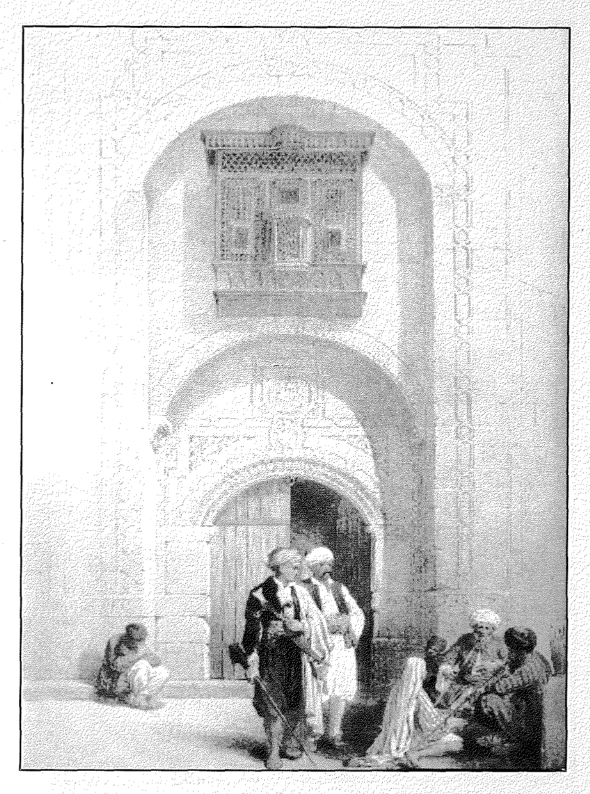




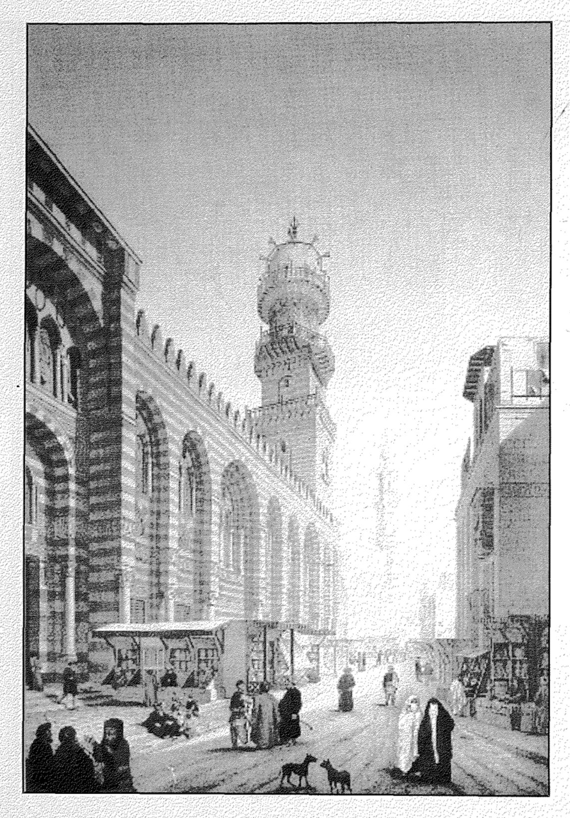
صانع الكنافة وحوله زبائنه



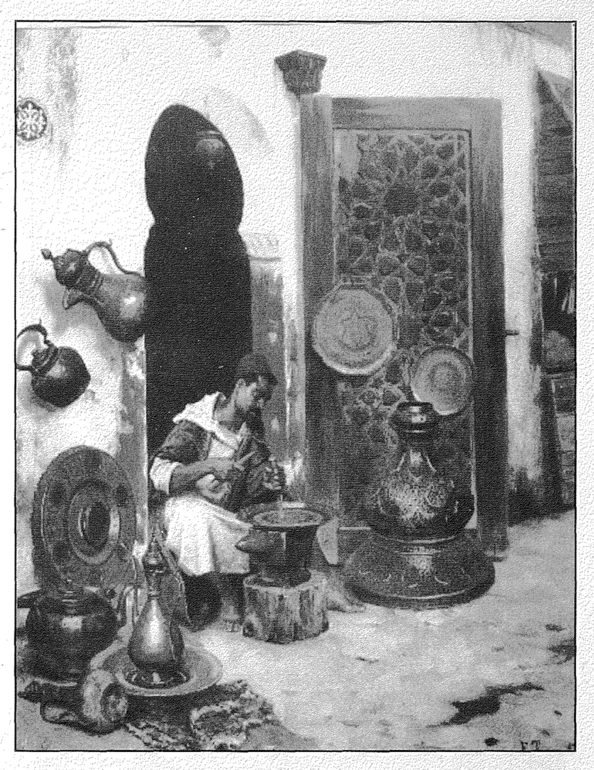
الصراف فى أحد أسواق القاهرة



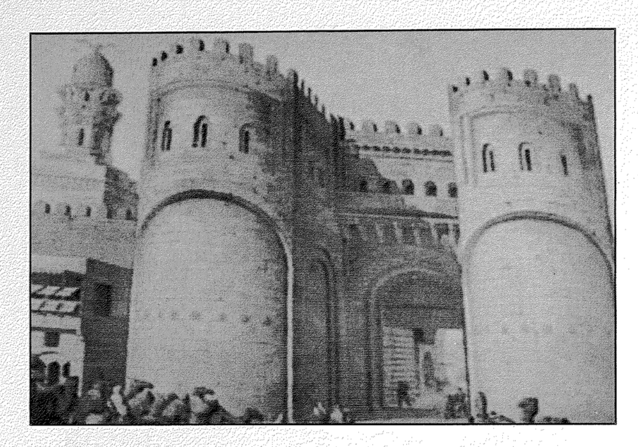
واجهة أحد البيوت فى القاهرة



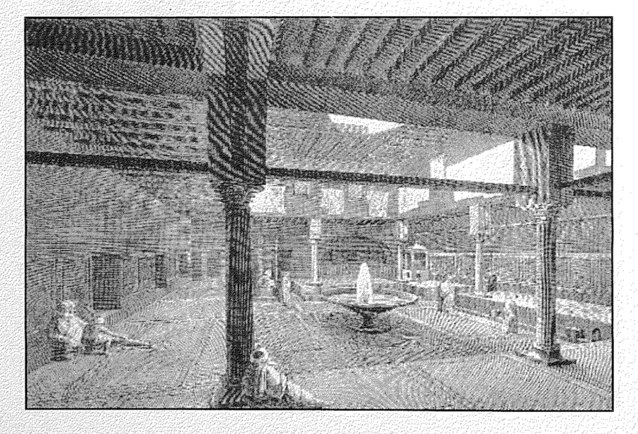
مجموعة السلطان المنصور قلاون



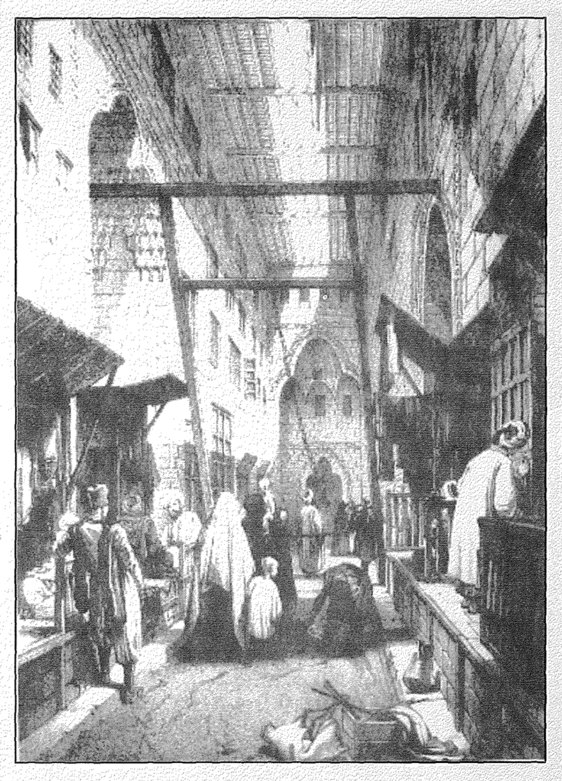
صانع الأوانى النحاسية



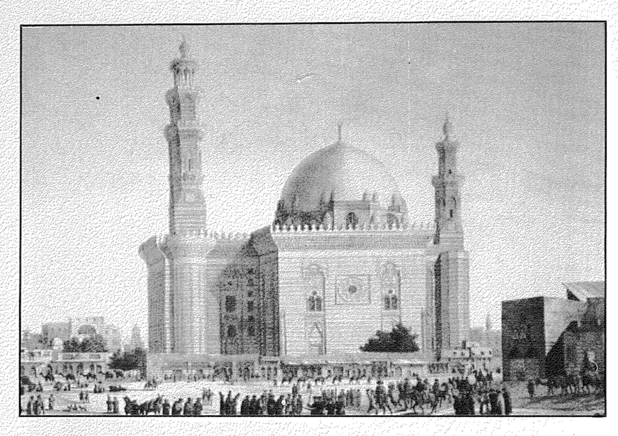
باب الفتوح



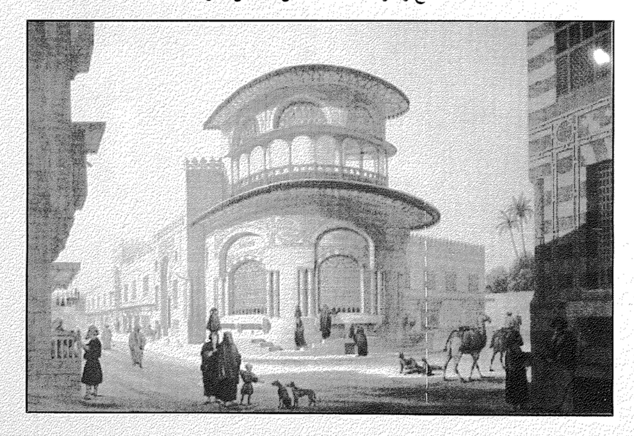
حمام عمومي – القاعة الوسطي (وسطاني)



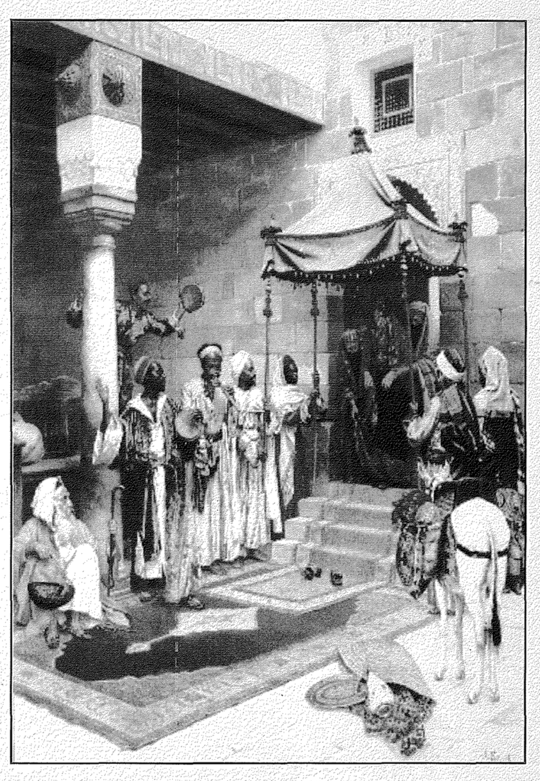
خان الخليلى



جامع ومدرسة السلطان حسن محمد بن قلاون



واجهة أحد الأسبلة وبجواره تكية الدراويش



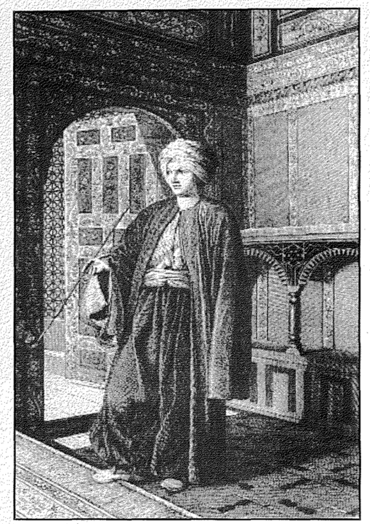
زفة عروس : تخرج العروس وفي استقبالها الفرقة الموسيقية



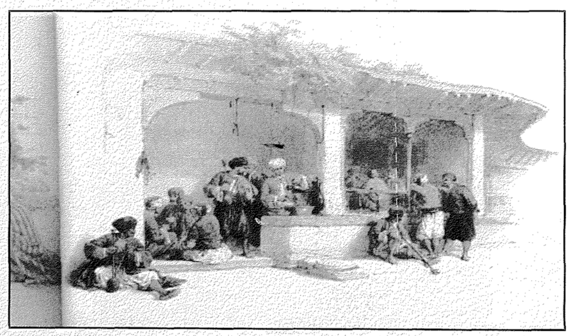
سوق السجاد



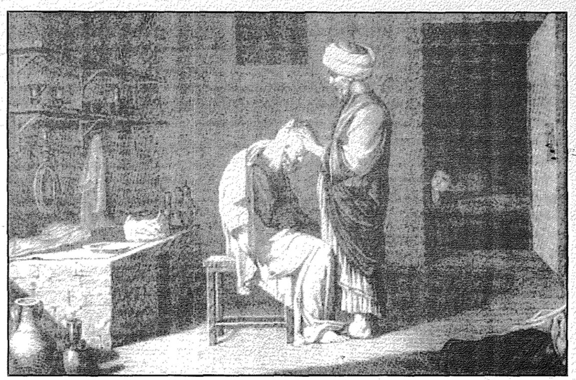
مائدة عشاء في أحد البيوت



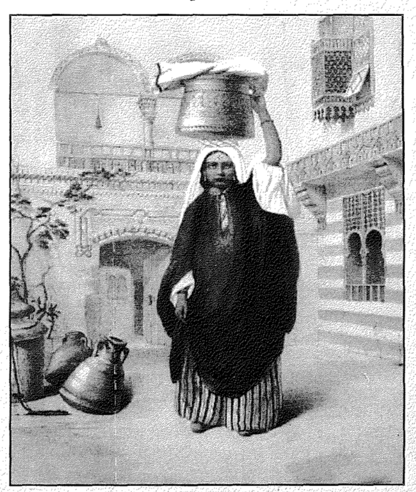
مملوك في الزي الرسمي



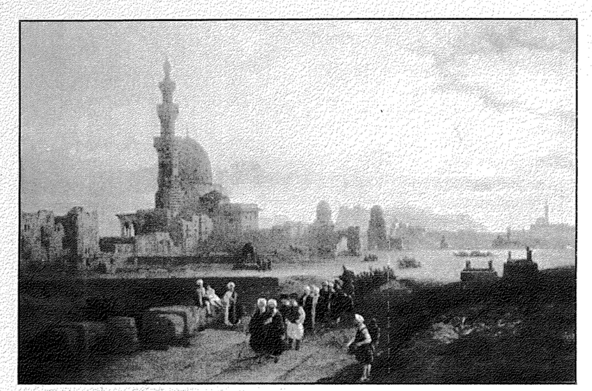
المقهى في القاهرة



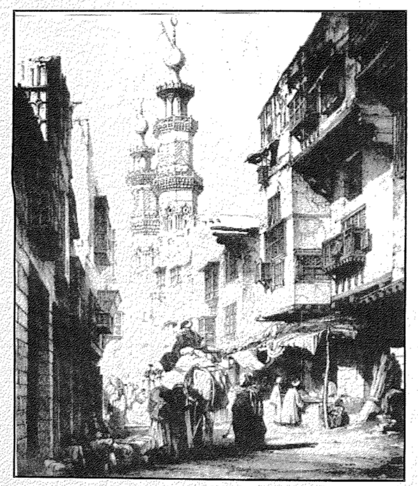
الحلاق



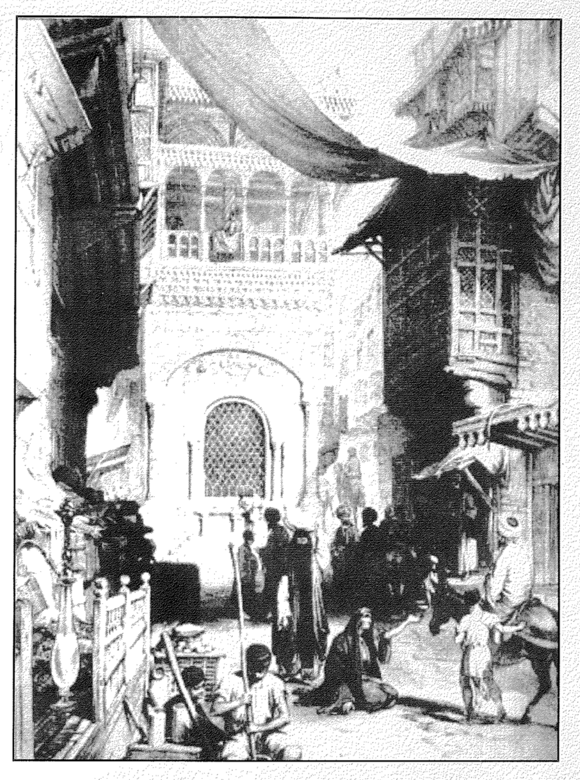
فتاة مصرية خارجة من الحمام



القرافة : جبَّانة القاهرة وأحد مزاراتها المهمة



باب زويلة



بين القصرين

فهرست المحتويات

رقم الإيداع ٢٦٠١٢ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى L.S.B.N. 977 - 322 - 227 -6

مطبعة صحوة

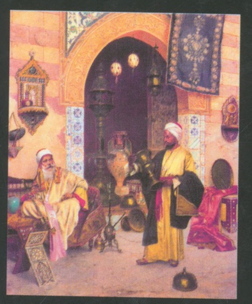
٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر- فيصل
تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨



جاستون ڤييت

القاهرة مدينة الفن والتجارة

ترجمة
دكتور مصطفى العبادى



صورة الغلاف/ رودلف ارنست: تاجر التحف المعدنية. لوحة زيتية. جاليرى «المتحف» بلندن





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES